الأديب ابو المغيرة بن حزم الأندلسي

دراسة في نثره

الدكتور
حازم عبدالله خضر
استاذ بقسم اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة الموصل

بين يدي البحث

يكاد الباحثون يجمعون على ان فترة القرن الخامس للهجرة كانت من اخصب فترات حياة المسلمين في شبه جزيرة ايبريا على صعيد العلم والأدب ظهر كثير من ملامحها في المؤلفات والآثار الثقافية والعلمية الغزيرة الكثيرة ، إلى جانب ما شهدته الفترة على ساحة الأدب والادباء من اعلام الادب كانت لهم اثار عديدة في ميداني الشعر والنثر وكثير منهم جمع بين الفنين امثال ابن دراج القسطلي وابن شهيد وابي المغيرة بن حزم وابي محمد بن حزم وابن زيدون وابن خفاجة وابن وهبون وغيرهم كثير ...

وفي حدود هذا البحث وعلى صفحاته نحاول القاء الضوء على شخصية ادبية من هؤلاء لم تنل – في حدود علمي – ما تستحقه من الدراسة والنظر فيما تركته من آثار ادبية ؛ تلك هي شخصية ابي المغيرة عبدالوهاب بن حزم وذلك عبر النصوص التي اوردها ذخيرة ابن بسام إلى جانب عدد من المصادر المشرقية والأندلسية ، وقد تضمنت قطعاً نثرية ومجموعات شعرية مطرزة بأنواع من اساليب الزخرف اللفظي والمعنوي واساليب متنوعة من الوان الحوار والرسائل وصور من المواقف المختلفة مع المعاصرين لأبي المغيرة من الأدباء

والعلماء مثل ابي محمد بن حزم الفقيه الأديب وابن شهيد وغيرهما .
ولعل من مسوغات اختيار هذا الأديب في هذه الدراسة انه لم يتناول مفصلا من قبل الباحثين في الأدب الأندلسي اذا استثنينا اشارات عدد قليل منهم في سياق الحديث عن ادب الفترة كلها او الحديث عن اديب خاص في معاصريه مثل ابن حزم ابي محمد ، ولم تكن تلك الاشارات كافية لاعطاء فكرة موجزة واضحة عن ادب ابي المغيرة وسمات ملكته المزدوجة ...

وقد يكون من المسوغات الأخرى لدراسته ؛ اهمية الفترة التي عاش فيها والعلاقات التي كانت له مع الأمراء الذين يشكلون صوراً متنوعة في فترة الفتنة وجانباً من عهد الطوائف ، إلى جانب علاقات ادبية وعلمية مع اعلام العصر واصداء ذلك كله في شعر ابي المغيرة ونثره .

ويمكن ان نضيف إلى ما سبق ؛ النتائج التي يوفق الله تعالى إلى الوصول اليها من سمات الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية ، التي احتواها ادبه وكانت ذات دلالات عـلى احوال المجتمع وسمات حياته ولما كان لابي المغيرة شعر ونثر ترتب على البحث ان يتناول دراسة ادبه في قسمين القسم الأول : يبحث في نثر ابي المغيرة في مضمونه وشكله وعرض مضامين نصوصه وسمات تلك النصوص بعد التعريف باسم الاديب ونسبه ومولده ونشأته وثقافته في حدود ما يستوعبه البحث المعد للنشر في مجلة علمية .

اما القسم الثاني فهو بحث مستقل يعني بدراسة شعر ابي المغيرة في مضمونه وشكله وسماته من خلال النصوص الواردة له في الذخيرة وغيرها .

ابو المغيرة بن حزم (٠٠ـ٤٣٨هـ)

اسمه ونسبه

عبدالوهاب بن احمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن حزم ابو المغيرة الوزير الكاتب (١) اما الكنية فاننا لا نعلم لها اصلا سواء في الأخبار التي عرفت به

(١) جذوة ، المقتبس ، الحميدي – ت ٦٥٨ ص ٢٩١ – ٢٩٢ .
وينظر في ترجمته كذلك : بغية الملتمس ، الضبي ص ٣٨ .
والصلة لابن بشكوال ص ٣٨٠ ومطمح الانفس ومسرح التأنس / الفتح ابن خاقان ص ٢٠٢ – ٢٠٣

او النصوص الأدبية التي اثرت عنه وبهذا لا يستطيع الباحث ان يحدد اصل هذه الكنية هل هي لولد له اسمه المغيرة ام انها مجرد كنية اطلقت عليه او اطلقها هو على نفسه ثم عرف بها واشتهر .

اما النسب المذكور فيتردد في المصادر التي عرفت به وهي قديمة معروفة ومما يلفت النظر في جملة تلك التعاريف اجماعها على القول بأن ابا المغيرة هو ابن عم الفقيه الأديب ابي محمد بن حزم وربما كانت قد اخذت ذلك من بعض الاشارات الواردة في شعر ابي محمد الفقيه ؛ ولكن هذه النسبة تبدو لدى المتأمل في سلسلة نسب الاديبين انها تنطوي على تجوز واضح في تحديد العلاقة بينهما بعلاقة العمومة ؛ فأبو محمد بن حزم هو :

علي بن احمد بن سعيد بن حزم ، وحين نوازن بين النسبين يبدو لنا انهما يلتقيان في الجد — سعيد بن حزم — ونفهم ايضاً ان عبدالرحمن هو جد ابي المغيرة لكنه لم يذكر في سلسلة نسب ابي محمد الفقيه ، كما ان الاثنين سمي كل منهما باسم احمد ثم يفترقان فيصبح جد ابي المغيرة هو عبدالرحمن في حين يكون جد ابي محمد هو سعيد الذي يأتي في نسب ابي المغيرة والد جدّه .

على ان الصلة واضحة قوية بين الرجلين مما يجعل اطلاق صلة العمومة بينهما مقبولاً وارداً وهو مما يستعمل كثيراً حتى بالنسبة للغرباء في تعابير العرب والصلات التي تربط بين الاقران والأصحاب فضلا عن المنحدرين من جد واحد .

ويشير عدد من المصادر إلى ان ابا المغيرة وأبا محمد ينتسبان إلى اسرة اندلسية تنحدر من اصل اعجمي غير اسلامي وذلك على نحو ما يذكره ابن بسام نقلا عن مؤرخ الأندلس في القرن الخامس ابي مروان بن حيان فيقول ضمن التعريف بأبي محمد الفقيه «... وقد كان من غرائبه انتماؤه في فارس ، واتباع اهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر تولى فيها ابوه الوزير المعقّل في زمانه

الراجح في ميزانه ؛ احمد بن سعيد بن حزم لبني امية اولياء نعمته ، لاعن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عهده الناس خامل الأبوة ، مولد الأرومة من عجم لبله ، جده الأدنى حديث عهد بالاسلام ...» (١).

مولده ووفاته

لم يكن أبو المغيرة في مولده مخالفاً عن كثيرين من الشخصيات العلمية والأدبية التي لايعرف تاريخ مولدها تحديدا من أي مصدر من المصادر التي ترجمت لها ولهذا وجدنا هذه المصادر تسكت أو تمسك عن أية اشارة تدل من قريب أو بعيد على تاريخ مولد أبي المغيرة مع أنه ولد في فترة مهمة من تاريخ الأندلس في أواخر القرن الرابع للهجرة ، فلا يجد الباحث أمامه الا الركون إلى التقدير استنادا إلى اشارات في الشعر أو النثر ، ومن ذلك مثلا ما ورد في بعض المصادر من أن ابا المغيرة تحدث عن نفسه قائلا : « نادمت. المنصور إبن أبي عامر في منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضر ... » (٢).

وهذا اذا صح فانه يدل على ان ابا المغيرة قد ولد في أوائل الربع الأخير من القرن الرابع اذ المعلوم ان المنصور ابن أبي عامر كان قد توفي سنة ٣٩٢ هـ(٣) . ومعنى ذلك ان أبا المغيرة قد كان يحضر مجالس المنصور قبل هذا التاريخ فاذا قدرنا أن عمره انذاك كان دون العشرين بقليل فانه لابد أن يكون قد ولد في سنة ٣٧٠ هـ أو قبلها .

أما تاريخ وفاته فان المصادر التي ترجمت له أوردت تاريخين متباعدين أما أولهما فيقول : « مات أبو المغيرة قريباً من العشرين واربعمائة .. » (٤) . وهذا المصدر أقرب من غيره بالنسبة لأحداث الفتنة والطوائف من الثاني . الذي يذهب إلى القول : « ... وتوفى بعسكر ابن ذي النون صاحب طليطله مستهل صفر من سنة ثمان وثلاثين واربعمائة ودفن بطليطلة رحمه الله »(٥).

(١) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة / ابن بسام ق ١م١ ص ١٧٠
(٢) نفح الطيب / المقري حـ٢ ص ١٤٧ - ١٤٨ .
(٣) البيان المغرب / ابن عذاري المراكشي حـ٢ ص ٣٠١ . والمطمح / الفتح ص ٥٤ .
(٤) جذوة المقتبس / الحميدي ص ٢٩٢ .
(٥) الصلة / ابن بشكوال - القسم الثاني ص ٣٨١ .

والذي يبدو ان التاريخ الثاني أقرب إلى الصواب من الأول على الرغم من ان الأول اسبق منه وذلك لأن الاشارات الواردة في شعر ابي المغيرة ونثره تدل على وجوده بعد سنة ثلاثين وأربعمائة وربما كان من ادلة ذلك ان الخبر الثاني مفصل محدد حتى في الشهر والمكان وفترة الحكم المعينة المحددة يضاف إلى هذا ان الخبر نفسه منقول عن المقتبس لابن حيان مؤرخ الأندلس المشهور وهو قريب جدا من الفترة التي عاش فيها أبو المغيرة بل أنه قد عاش الفتنة بأحداثها الجسام وما انطوت عليه من الوان الاضطراب والقلق والتقلب السياسي والاجتماعي وغيره ، واذا تذكرنا ان معاصريه البارزين ابن عمه أبو محمد إبن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ وابن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦ هـ . تأكدت لنا صحة ترجيح الوفاة في سنة ٤٣٨ هـ ، كما ذهب كثيرون من القدماء والمحدثين إلى ذلك .

نشأة ابي المغيرة وثقافته

لاتتوفر بين ايدينا أخبار وافية واضحة عن ابي المغيرة في حياته الاولى سواء في مولده ونشأته أو ثقافته وطلبه للعلم ، فالمصادر التي عرفت به جاءت عبارات اكثرها مختصرة مبتسرة لا تكاد تتجاوز ذكر الاسم والنسب والصلة بالفقيه ابي محمد وتلك ظاهرة الفناها في ترجمات العديدين من الأدباء والعلماء الذين لم تذكر المصادر شيئاً ذا قيمة عن مراحل حياتهم الأولى ، ويكاد واحد منها فقط ينفرد باشارة عابرة مختصرة جدا حول أبي المغيرة في جانب حياته الثقافية الأولى ، اذ يقول في مقدمة ترجمته له : « ... يكنى ابا المغيرة ، له سماع من ابي القاسم الوهراني وغيره ... » (١) . وهذه العبارة تدل بوضوح — على الرغم من ايجازها — على ان أبا المغيرة قد أخذ علومه أو جانباً منها سماعاً عن الوهراني وآخرين . ولانجد سوى ذلك من التفصيل أو الاشارة إلى العلوم التي سمعها وأخذها عن الوهراني وغيره ، وان كان المعروف المشهور ان الاندلس كانت تزخر بالعلماء والأدباء الذي يرجع اليهم

(١) الصلة / ابن بشكوال ت ٨١٥ ص ٣٨٠ القسم الثاني .

طلبة العلم وأصحاب المواهب العلمية والادبية ليأخذوا أصول علومهم وقواعد آدابهم في شتى مضامينها واشكالها ، ولا شك في ان يكون أبو المغيرة واحداً من هؤلاء الذين بدأوا حياتهم في ملازمة حلقات الدرس ومجالس العلم يأخذون عن الشيوخ المعاصرين لهم ويتابعون ما يظهر من المؤلفات والمصنفات مشرقية واندلسية ، ولعل مما يؤكد هذا بالنسبة لابي المغيرة ما تركه من الاثار النثرية والشعرية — مما وصل الينا — واستحق أوصاف البيان ونال إعجاب المشهورين من الأدباء والعلماء في عصره .

وأكثر من ذلك فان خبرته العلمية والأدبية وقوة بيانه وفصاحة لسانه اهلته أن يكون وزيراً كاتباً لعدد من امراء عصره وفي مقدمتهم : المستظهر والمنذر ويحيى بن ذي النون . . . . . .

على ان جوانب ثقافة ابي المغيرة لم تكن معتمدة على ما شاع في الأندلس فقط وانما نجدها قد تجاوزتها إلى الأصول المشرقية التي لا بد منها لكل اندلسي متعلم أو متأدب نلحظ ذلك في اشارات ونصوص واضحة في اثار ابي المغيرة تدل على مدى اطلاعه على اثار أهل المشرق ومنها رسائله النثرية بصورة خاصة التي يبدو فيها تأثره باعلام من ادباء المشرق كالجاحظ وبديع الزمان وغيرهما من الكتاب والشعراء الذين تأثر بهم أبو المغيرة ونسج على منوالهم فضلا عن محاولة التفوق عليهم . وبهذا نستطيع القول بان ابا المغيرة لا بد ان يكون قد سلك مسلك غيره من طلبة العلم في التردد على المشايخ المعروفين في عصره حتى استحق وصف أحدهم بقوله : «... الوزير الكاتب من المقدمين في الادب والشعر والبلاغة ... » (١) .

ويصفه اخر بأنه قد ترك تواليف عديدة مع انه توفي شاباً ... (٢) وان كان في قوله توفي شاباً — نظر استنادا إلى ما تم ترجيحه من سنة وفاته حيث يفترض ان يكون قد جاوز الستين ولكننا على الرغم من هذه الاشارة الواضحة

(١) جذوة المقتبس / الحميدي ت ٦٥٨ ص ٢٩٢ وكذلك الصلة ص ٣٨٠ .
(٢) ينظر المغرب في حلى المغرب / ابن سعيد حـ١ ص ٣٥٧ ت ٢٥٤ .

الصريحة من ابن سعيد حول اثار ابي المغيرة لا نكاد نجد منها شيئاً في ميدان التأليف والتصنيف وان كان ذلك لا يبرر انكار وجودها في عصره والعصور التالية ثم فقدت فيما فقد من تراث الأندلس الذي لا يقدر بثمن ومما يدل على ذلك شعر ابي المغيرة ونثره اللذين يدلان على مقدرته ومواهبه في ميادين العلم والأدب وسعة الثقافة التي احاط بجوانبها وانعكست في أثاره ولعل مما يؤكد ذلك أيضاً ان أديبنا عاش فترة الفتنة كلها وشهد أحداثها وتقلباتها فكان من المتوقع ان يفقد الكثير من اثاره ومؤلفاته التي سبقت الاشارة اليها وهو لا ينفرد بهذه الظاهرة وانما يشاركه كثيرون من اعلام الأندلس ممن ضاع كثير من آثارهم في خضم الثورات والأضطرابات التي تمخضت عنها الفتنة وأحداثها الجسيمة الخطيرة .

شخصيته ومكانته

اذا كانت المعلومات والأخبار عن نشأة أبي المغيرة وطلبة العلم قليلة لاتفي بالغرض ، فان المعلومات والأخبار عن شخصيته أقل من ذلك إلى حد الندرة غير ان المتتبع لنصوص ابي المغيرة النثرية والشعرية يستطيع ان يتصور ملامح شخصيته وسمات مكانته في المجتمع الأندلسي أوائل القرن الخامس مستعيناً بما ذكره ابن بسام في سياق تعريفه بابي المغيرة حين قال :

« ... كان أبو المغيرة هذا ظبة الحسام وواسطة النظام وفارس ميدان البيان وذات صدر الزمان حل من زهر الفضائل محل السنان من العامل والزبرقان من المنازل وتمت به غرر المحامد ، تمام الصلات بالعوائد ، ومجهول اللغة بمعلوم الشواهد ... » (١) .

ثم يؤشر ابن بسام على جملة من ملامح شخصية أبي المغيرة من حيث ما امتازت به من الأمزجة والطباع فيقول : « ... وشجر الأمر بينه وبين الفقيه ابي محمد بن حزم ابن عمه لانه كان أنبه من ابي محمد في حضور شاهده

(١) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة / ابن بسام ق ١م١ . ص ١٣٢ .

وذكاء خاطره وحسن هيئته ، وبراعة ظرفه وجودة أدبه ، وهو كان فـــي زمانه في الجد والهزل صاحب اللواء في مجالس الأمراء .. » (١) .

ولا يخفى على المتأمل في هذه العبارات أن يلاحظ دلالتها على ملامـــح شخصية أبي المغيرة التي يمكن تحديدها في الاعتداد بالنفس والاعجـــاب بمواهبها وقابلياتها مع ميل إلى الجدل والحوار وحدة في الطبع وذكاء وفطنة وصبر على مجالدة الخصوم ومحاولة النيل منهم والتفوق عليهم مهما كانت شهرتهم ومهما بلغوا من المنزلة العلمية ، ويكفي ان نشير هنا إلى منازلة أبي المغيرة لابن عمه الفقيه أبي محمد بن حزم وهو العالم المؤرخ الأديب المعروف المشهور في عصره والعصور التالية من خلال مؤلفاته وجهوده العلمية والأدبية .

وإلى جانب هذا كله فان النصوص النثرية والشعرية التي وصلت الينا مـن اثار ابي المغيرة تدل بوضوح على علاقاته وصفاته والوان تصرفاته ونوازعـه حتى ليمكننا القول بأنها تتحدد في اطارين بارزين هما :

جانب العلاقة مع الامراء وتولي أبي المغيرة وظيفة الوزارة والكتابة على عادة الأمراء الأندلسيين الذين يتخذون لهم غالباً كتاباً يطلقون عليهم لقـــب الوزارة وجانب العلاقات الوثيقة بأدباء عصره المشهورين وفي مقدمتهم أبـو عامر بن شهيد الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٢٦ هـ وابن عمه ابن حـــــزم وآخرون . (٢)

أما جانب العلاقة بالأمراء وممارسة الكتابة لهم فان الأخبار تحدثنا عن ذلك مبتدئة بالمنصور بن ابي عامر وولديه من بعده ثم علاقته بعبد الرحمن المستظهر والمنذر ويحيى ابني هود صاحب سرقسطة وغيرهم . (٣)

وتقرأ في شعر ابي المغيرة اشارات إلى جوانب من هذه العلاقة و انشـــاد الشعر بين يدي المنصور واعجاب الأخير به على الرغم من سخطه عليه قبـــل

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٣ .

(٢) ينظر طوق الحمامة / الفتح ص ٣٨٨ في تصوير العلاقة بين ابي المغيرة وابن شهيد

(٣) ينظر نفح الطيب / المقري حـ٢ ص ١٤٩ .

ذلك ، وقد أورد المقري صورة من ذلك المجلس وما حصل فيه مع نصوص شعرية دالة عليه (١) .

أما ابن بسام فانه يؤكد على جانب العلاقة بالأمير عبد الرحمن بن هشام المستظهر فيقول : « ... ودولة عبد الرحمن بن هشام المستظهر المتقدمة الذكر كانت مهبّه الذي منه عصف ، ومجاله الأول الذي فيه تصرف ، القى اليه زمامه وأخدمه أيامه ثم عتب عليه في بعض الأمر فلحق ببلاد الثغر فهناك تسحب على الدول تسحب الهوى على العذل وامتزج بملوك العصر امتزاج الماء بالخمر ولو طال مداه لم يذكر معه سواه ولا اعترف بتفضيله أحبته وعداه ... » (٢) .

كما ينص ابن بسام نفسه على ممارسة أبي المغيرة وظيفة الكتابة للأمراء في بلاد الثغر فيما ينقله عن ابي مروان بن حيان فيقول : « ... ولحق ببلاد الثغر وقد اعتلت طبقته في النظم والنثر ، وكتب عن عدة من الأمراء ونال حظا عريضاً من دنياهم ... » . (٣) .

أما جانب العلاقة بأدباء العصر المشهورين فهناك اشارات كثيرة على ذلك يمكن من خلالها تصور ملامح شخصية أبي المغيرة كما تلفت النظر إلى مكانته في أدباء العصر وعلمائه وطبيعة علاقاته بهم سواء أكانت علاقات ود واحترام ومحبة ووئام أو كانت علاقات تنافر واختلاف وخصام .

وفي ميد ان النوع الأول من هذه العلاقة تطالعنا علاقة أبي المغيرة بأديب فترة الفتنة أبي عامر بن شهيد الكاتب الشاعر اذ تبدو من خلالها قوة الصلة بين الأديبين وصلات الود التي تربط بينهما : « ... وكان هو وأبو عامر بن شهيد خليلي صفاء وحليفي وفاء لاينفصلان في رواح ولا مقيل ولايفترقان كمالك وعقيل ، وكانا في قرطبة رافعي ألوية الصبوة ، وعامري أندية السلوة ، إلى

(١) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة / ابن بسام – ق ١م١ ص ١٣٢ – ١٣٣ .
(٢و٣) المصدر نفسه ص ١٣٢ – ١٣٣ .

ان اتخذ أبو عامر في حبالة الردى وعلق ، وغدا رهنه فيها وغلق فانفرد أبو المغيرة بذلك الميدان واسترد من سبقه ما فاته منذ زمان ، فلم يذكر له مع أبي عامر حسنة ولاسرت له فقرة مستحسنة لتعذر ذلك وامتناعه لشغوف أبي عامر وامتداد باعه ... » (١) . ولاشك ان هذا النص واضح الدلالة على أمرين مهمين يتعلقان بشخصية أبي المغيرة ومكانته : أما أولهما فيبدو في صلته القوية بمشاهير عصره ومنهم ابن شهيد . وأما ثانيهما فيبدو في تألقه وذيوع شهرته بعد وفاة أبي عامر لتفوق الأخير عليه في ميادين الأدب شعراً ونثرا .. هذا إلى جانب علاقاته بالأمراء والأدباء المعاصرين له .

أما في ميدان النوع الثاني من علاقاته وهو المتمثل في العلاقات السلبية القائمة على الاختلاف والتناحر والخصام والتنافر ، فيظهر بوضوح في علاقته بابن عمه أبي محمد بن حزم الفقيه الأديب العالم صاحب المؤلفات الكثيرة والمصنفات المهمة : « وشجر الأمر بينه وبين الفقيه أبي محمد بن حزم ابن عمه وجرت بينهما هنات ظهر عليه فيها أبو المغيرة وبكته حتى أسكته لأنه كان انبه من أبي محمد في حضور شاهده ، وذكاء خاطره وحسن هيئته وبراعة ظرفه وجودة أدبه ... » (٢) ، واذا كانت عبارات ابن بسام تشير صراحة إلى تفوق أبي المغيرة على ابن عمه فيما عدده من صفات فان ذلك بحاجة إلى تأمل ونظر ومراجعة ، نظرا لأن هذه الأوصاف يصلح اطلاقها على أبي محمد قبل غيره فهو المؤرخ العالم الأديب صاحب الاثار الكثيرة المتنوعة دون الاقتصار على الادب ، علماً بأنه كان أديباً شاعرا إلى جانب ممارسته التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة ، حتى ان تلميذه أبا عبد الله الحميدي ذكر ان له ديوان شعر في عشرين جزءاً . (٣) هذا إلى جانب كتابات نثرية في موضوعات شتى ومنها ما راجع به ابا المغيرة في واحدة من رسائله ، على ان ابن بسام يعترف — في ترجمته لابي محمد — بفضله

(١) مطمح الانفس ومسرح التأنس / ابن خاقان ص ١٥٤ وينظر النفح حـ٢ ص ١٤٩ .
(٢) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة / ابن بسام ق ١م١ ص ١٣٧ .
(٣) تنظر : جذوة المقتبس / الحميدي ص ٢٩٢ ت ٦٥٨ .

ومكانته ويسرد العديد من سمات شخصيته وجوانب معرفته في علوم الشريعة والتاريخ والفلسفة والأخلاق والتراجم والسير ، وكان مما قاله فيه « ... وكان أبو محمد حامل لواء فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من انواع التعاليم القديمة في المنطق والفلسفة وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة ... » (١) . وهكذا تأتي اشارات ابن بسام دالة على فضل الرجلين وتقدمهما والاعتراف لابي محمد بالسبق في ميدان التأليف في معارف شتى كما تنص في الوقت نفسه على مكانة ابي المغيرة وفضله بين اقرانه على الرغم من قلة ما اثر عنه من اثار علمية وأدبية .

أبو المغيرة بن حزم ناثراً

يبد و أبو المغيرة واحداً من أصحاب الملكات المزدوجة الذين كثروا في الأندلس في عصره ابان القرن الخامس ثم ازدادت وانتشرت فيما تلا عصره على امتداد القرن الخامس والفترات التالية ، وكان من معاصريه من أصحاب هذه الملكات المزدوجة ابن شهيد الأندلسي الذي عرف بنظم الشعر وكتابة النثر والرسائل وكانت رسالته — التوابع والزوابع — من أهم أسباب شهرته في أوساط الأدب . ثم كان هناك أدباء من ذوي الملكات المزدوجة يعد أبي المغيرة وابن شهيد مثل ابن زيدون صاحب الأشعار المعروفة والرسائل الذائعة ومنها رسالتاه الجدية والهزلية .. وهكذا تبدو لنا ظاهرة أصحاب الملكات المزدوجة من سمات الأدب الأندلسي في القرن الخامس خاصة والقرون التالية بصورة عامة . ولقد ظهرت هذه الملكة المزدوجة لتؤكد حرص الأدباء على الجمع بين فني المنظوم والمنثور والتفوق في كليهما دون أن تطغى احداهما على الأخرى وبهذا عرفت أثار أولئك الأدباء الجمع بين الفنين سواء بطريق ممارسة كل منهما بصورة مستقلة أو بالجمع بينهما في الرسالة الواحدة ،

(١) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق ١م١ ص ١٦٧ - ١٧٥ / ترجمة ابي المغيرة .

وهكذا يكون أبو المغيرة ظاهرة بدهية متوقعة في عصره وصورة معبرة عن هذا العصر من الوجهة الأدبية والثقافية .

ولا يبدو غريباً بعد هذا أن يؤكد المؤرخون والأدباء على جانب النثر عند ابي المغيرة والنظر اليه على انه صورة معبرة عن الحياة الأدبية والثقافية أهلته أن يكون وزيراً كاتباً لدى أمراء عديدين طيلة حياته الأدبية ، وتمكن في الوقت نفسه أن يصارع الأعلام المشهورين في ميادين الأدب والعلم ومناقشتهم والرد عليهم وهم يعترفون بفضله ويقرون بمكانته من خلال اجوبتهم والوان حوارهم النثري معه ولعل من دلائل ذلك ما عرضه ابن بسام في مفتتح تعريفه بأبي المغيرة من رسائل في موضوعات شتى قبل أن يأتي إلى الحديث عن شعره وايراد نصوص مختارة منه وقد وضع ذلك تحت عنوان : « جملة من رسائله في أوصاف شتى » (١) بعد أن ترجم له ووصفه بأوصاف البيان والبلاغة والنباهة والفطنة والذكاء والعلم ولكن ابن بسام — على عادته — يستطرد خلال النماذج النثرية إلى ذكر جملة من المعاني التي سبق اليها الشعراء المشرقيون وقدر ابن بسام أن ابا المغيرة قد أخذها عنهم . مع ذكر جانب من علاقة أبي المغيرة بأبن عمه ابي محمد بن حزم وغيره ممن كانت له صلة أدبية وثقافية بهم وبرز على شكل حوار أو نقاش نثري متبادل يتراوح بين الهدوء والثورة ويتأرجح بين سمات المودة والحب والتقدير وسمات العداوة والبغض والكراهية .

وتجدر الاشارة أخيراً إلى ان ابن بسام يكاد ينفرد بذكر النصوص النثرية المختلفة مما يجعلنا نعتمده أساساً في عرض النصوص ودراستها كما نرجع اليه دائماً في توثيق هذه النصوص ، في حين لانجد المصادر الأخرى قد عنيت بها عناية ابن بسام أو أوردت القدر الذي أورده .

---

(١) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق ١م١ ص ١٣٣ - ١٦٦ .

موضوعات نثر ابي المغيرة

أورد ابن بسام ما يربو على عشرين رسالة نثرية طويلة وقصيرة في موضوعات مختلفة يأتي في مقدمتها موضوع الأخوانيات وهي الرسائل المتبادلة بين ابي المغيرة وعدد من انداده الأدباء المعاصرين له ثم تأتي الموضوعات الأخرى في وصف الطبيعة والموضوعات الاجتماعية وغيرها مما له صلة بالحياة والعلم والأدب . ومما يلفت النظر في هذه الموضوعات خلوها تقريباً من الرسائل الديوانية المستقلة المعبرة عن شؤون الديوان الأموي الأندلسي — كما عهدناه — في التولية والعزل والنقل والتعيين والتهنئة والتعازي وأمور السياسة الأخرى ، وذلك على الرغم من وجود العلاقة الوثيقة — غالباً — بين ابي المغيرة وعدد غير قليل من الأمراء في فترة الفتنة وما قبلها وما بعدها ، مع تأكيد ابن بسام وغيره ممن ترجم له على ممارسته الكتابة لاولئك الأمراء وتسميته وزيرا لعدد منهم ...

ولعل من أسباب ذلك اهمال المؤرخين ومنهم ابن بسام لتلك النصوص المتضمنة للمعاني الديوانية لسبب عام يعود — عند ابن بسام — إلى حرصه على الاختصار والاختيار الذي يشمل عدد الرسائل والسطور التي يختارها لكل منها .

وربما كانت هناك أسباب أخرى تعود إلى مضامين القطع المفضلة حرصاً على أبي المغيرة أو غيره ممن تخصهم ، أو تعود إلى المخاطبين بها من غير الأدباء كالأمراء والقواد والوزراء ، مما قد يكون مهملا في وقته ولم يقف ابن بسام على أثر له . ولكن الشيء الذي يطمئن الباحث إلى ترجيحه — على الرغم مما سبق — ان هذه الصور الأدبية النثرية مهما كانت موضوعاتها قليلة موجزة فانها ليست قاصرة عن التعبير عن شخصية أبي المغيرة في جوانبها المتعددة علماً وأدباً وثقافة وطبعاً وخلقاً وسلوكاً ، وهي في الوقت نفسه لاتخلو من اشارات ولمحات تحدد سمات الحياة الاجتماعية والسياسية

والاقتصادية للمجتمع الأندلسي في عصر أبي المغيرة .

أما الاساس الذي سيتم تناول موضوعات النثر على وفقه فهو بصورة عامة يعتمد أهمية الموضوع وصلته بالحياة والقدر المتوفر من الصور النثرية التي تعبر عنه وبهذا سيكون الموضوع الأول : الرسائل الأخوانية — كما سبقت الاشارة ثم رسائل المراجعات والمجاوبات يتلوها عرض الرسائل الاجتماعية والرسائل المجونية ثم رسائل وصف الطبيعة . وذلك على منهج تقديم الاهم ثم المهم كما ونوعاً مع التأكيد مرة أخرى على ان هذا كله انما يكون في نطاق النصوص المتوفرة بين ايدينا .

الرسائل الاخوانية

ونقصد بها تلك الرسائل التي تعالج موضوعات تتصل مباشرة بالأصدقاء والأنداد ممن له صلة بالأدب والثقافة والعلم أو له صلة أخوة وصداقة مجردة بالأديب . أو كانت الصلتان مجتمعتين فيه مما يجعل الصلة بين الأديبين أقوى وامتن من غيرها . والناظر في مجموع رسائل أبي المغيرة يبدو له أن هذا النوع يشكل جزءاً كبيراً منها وذلك عبر ما أورده ابن بسام من النماذج والصور في القسم الأول من سفره القيم ، ونشير بين يدي عرض نماذج هذا النوع إلى ان هذا الفن النثري غرض تقليدي معروف في أوساط أدباء النثر الفني في المشرق والأندلس وهو تعبير صادق عن طبيعة العلاقات بين الأتراب والأنداد من أهل العلم والأدب سواء كانت هذه العلاقات أيجابية يجللها الحب والصفاء وتظللها المودة والوفاء أو كانت سلبية تعبر عن ضعف العلاقة بين أبي المغيرة وعدد من معاصريه إلى درجة قد تحمل كلا منهما على مجافاة أخيه ومعاداته حسداً وغيرة أو انتقاماً ورداً على اساءة أو تقصير ... أو دفاعاً عن النفس أو دوافع أخرى من مصلحة دنيوية أو اجتماعية أو غيرها مما يؤثر في نفسية الأديب فيثير مشاعره ويفجر لسانه وقلمه بعبارات لاذعة أو انتقاد شديد ....

ويمكن للباحث المتأمل في رسائل أبي المغيرة في هذا الموضوع ان يلاحظ تعبيرها عن شخصية أبي المغيرة ونفسيته التي تبدو متسمة بالحدة والشدة غالباً ويلاحظ الباحث كذلك ان هذه الرسائل يخلو كثير منها من أسماء الذين خوطبوا بها ، مما يدفع إلى الظن بأن ابا المغيرة كان يحرص على اغفال الأسماء لما يتوقعه من المحاذير والنتائج السيئة ، ومع ذلك فان هذا الاغفال قد يكون سببه أحياناً ابن بسام نفسه في اقتباسه النصوص أو الفصول — كما يسميها — من تلك الرسائل متجاوزاً الأسماء اختصارا وتجنباً للاثارة والاساءة إلى المعنيين بها .

ومن النصوص الواردة في هذا الموضوع ماورده ابن بسام تحت عنوان «وله» ... قد أغنى الله ما يشاء بتمكن بنيانه ، وثبات أركانه عن تعاطي القول في تقريظه ووصفه ، ورأيت ما هززت مني في خدمة ارادتك ، ماضي الحز لين المهز ، لو صادف مضرباً ووقع على محز ، واذا احتجت إلى دليل على قصدي في تأتي أوطارك ومآربك ، وحظي شعب انحائك ومذاهبك .»(١) فهذه السطور القليلة من النص قد أغفلت الاسم وان كانت عباراتها تدل على أنها موجهة إلى شخصية ذات شأن في السلطان أو العلم أو المنزلة الاجتماعية وهي جملة عبارات تذكر المخاطب باخلاصه له وجهوده في خدمته على الرغم من أن أبا المغيرة لم يجد تقديراً مناسباً أو تجاوباً منصفاً لموقفه هو كما نفهم من عباراته .

ومن هذه الرسائل ما وجهه أبو المغيرة إلى أصدقائه وقد نص فيه على رباط الأخوة دون أن يذكر اسم المخاطب ، بل يكتفي بالاشارة اليه بلفظ « فلان » فيقول : (... وأما فلان فالكلام وان طال فيه قصير والواصف دون بلوغ مداه حسير ، لله أبوه ، صحة أخاء ومحض وفاء ، وحسبك أنه في الرعيل الأول من اخواني وفي الصدر المقدم ممن أثق به من أهل زماني ، وان كان فيهم ذو السر والفضل والنباهة والنبل :

---

١) الذخيرة / ابن بسام — القسم الأول — المجلد الأول ص ١٥٨ .

وكل لـه فضلـه والحجول يوم التـفـاضل دون الغرر (١)

فهذه السطور القليلة تعبر عن العلاقة الايجابية القائمة على المودة والأخاء والاعتراف بالفضل والثناء على أهله مع عدم اغفال وجود الخير عند النـاس الأخرين وكل ذلك من أدلة هدوء نفس أبي المغيرة واطمئنانها في تلـــــك اللحظات ، وهي حالة قلما نجدها في رسائله الأخرى ، ولعل ذلك ممـــــا يذكر بمكانة المخاطب وفضله وعلو منزلته في وجوه كثيرة .

ومما يسلك في هذا النوع من الرسائل الأخوانية سطور وضعها ابن بسام تحت عنوان « وله من أخرى » يطلب فيها أبو المغيرة كتاباً من صديق لايذكر اسمه ، وان كانت بداية السطور تدل على أنها مجتزأة فعلا وان مقدمتها ربما كانت تحوي أسم المخاطب ، غير ان ابن بسام — على عادته — اقتطع هذا النص مغفلا مقدمته وما قد تحويه من اشارات أو أسماء أو دلالات أخرى ، يقول فيها :

« .. وان رأيت تأنيسي بكتاب أجتلي فيه وجوه البدور ، وجواهر البحـــور ودرر الثغور ، واجتني به ثمر السرور ، وارتع منه في رياض العلوم ما بيـــن منثور ومنظوم ، نفست من خناق مشتاق كئيب ، وأنست من وحشة منفرد غريب ، بحيث لا أخ كريم ولا ولي حميم ، فقد صرت ولااحيل عـــلى الأثر بعد العين كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامـي بأرض نخلـة الا كمقام المسيـح بين اليهود..»(٢)

وفي هذه العبارات نفهم جملة من الأمور ، لعل في مقدمتها مرور أبـي المغيرة بفترة معاناة وشدة لم يشأ الافصاح عنها ؛ هل هي من فترة سجنـه ؟ أو هي غربة عن الوطن والأهل والأحبة أشبه ما تكون بالسجن أو النفي وما تؤدي اليه من شعور مرير بالغربة والوحشة ؟ أم أنها شعور بالاحباط بعد نفض اليد من الأصحاب والأوفياء ؟ .

(١) الذخيرة / ق ١م١ ص ١٥٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٩ .

على ان الرسالة تؤكد في جانب آخر من عباراتها على أهمية الكتاب والحاجة اليه في الشدة كما تشتد الحاجة اليه في الرخاء فهو الأنيس في الوحدة والناصح في الخلوة والمعين بعد الله تعالى على الغربة ؛ وفي هذا كله أدلة واضحة على دور الكتاب في حياة الانسان وحياة أبي المغيرة بصورة خاصة وحرصه على ان يشغل نفسه ووقته بصاحب لا يمل مهما طالت مرافقته واشتد اقبال الانسان عليه وملازمته له . ومن الرسائل الدالة على ايجابية الصلة بين أبي المغيرة وأقرانه ، الناطقة بالوفاء والمودة والحب ؛ رسالة تعد من الرسائل القليلة التي يشير فيها ابن بسام إلى اسم المخاطب بها ويضعها تحت عنوان : « وله من أخرى يخاطب بها عن نفسه الفقيه أبا عمر ابن عبد البر » (١) ، وفيها يعرض أبو المغيرة جوانب مشرقة من علاقته بالفقيه ومنها المودة والوفاء والمحبة والتقدير والصفاء ، والتعبير عن الم الفراق وشدته على النفس حتى انها اعتلت مع اعتلال البدن وتغير الحال ، حتى اذا حصل اللقاء ثارت مكامن الشوق أعنف مما كانت عليه قبله واشتدت اللهفة بقوة واندفاع ويستشهد خلال ذلك ببيت شعر للمتنبي فيقول بعد العنوان وذكر اسم المخاطب :

« ... ولقد بقيت حالي بعدك مريضة وعين آمالي مغضوضة ، وأيدي انسي مقبوضة وجيوش صبري عنك مفضوضة ، فقد كان ذلك البعد الطويل أحدث بعض السلوان وأتى بما في طبيعة الانسان من النسيان ؛ وان كان هذا القول الايقال على الاطلاق بل على الاضافة لما في الحال بحديث الافتراق ، حتى إذا وقع اللقاء وتأجج من ذلك الألتياع خامده وثار راكده وسال جامده ، وكانت حالنا كما قال أبو الطيب :

افترقنا حولا فلما التقينا كان تسليمه علي وداعا (٢)

---

(١) ابو عمر : يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري ، ابو عمر فقيه حافظ مكثر بالقراءات وبالخلاف في الفقه وبعلوم الحديث والرجال قديم السماع ... مولده (٣٦٢ - ٣٦٠) الجذوة ص ٣٦٩
والصلة لابن بشكوال ص ٣٧٦ ، الذخيرة ، في مواطن عديدة .

(٢) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق ١ م ١ ص ١٦٠ .

ومن الرسائل الدالة على ايجابية الصلة بين أبي المغيرة وأترابه ؛ رسالة أوردها ابن بسام تحت عنوان « فصل من رقعة شفاعة » . يعرض فيها أبو المغيرة تمهيدا للدخول في الحديث عن شخص لا يذكر اسمه ولكنه يكنيه بأبي الربيع مشيراً إلى حسن خلقه ودماثة طبعه وبيان لسانه وقدرته على الجمع بين فني المنظوم والمنثور ببراعة واجادة واحسان فيقول : « ... إذا شرب روض الشكر من حوض البر ، أطلع من الزهر ما يحمل مسك الطرر ، وتنفس عن نسيم يشفي حرارة القلوب الهيم ، وبحسب القائل يكون المقال ، وعلى قدر الجائل يتسع المجال ، وأبو الربيع من علم لسانه إن قال ، وبيانه قصر أو طال ، وأنه أشد بناة الكلام حرصاً إذا وجد آجرّاً وجصا وأعظم جياده رهاناً إذا وجد ميدانا متفاوتاً فمن أوثقه براً طوقه شكراً ومن خلع عليه ثياب الفضل من طراز الاكرام ، نزع اليه بجياد الحمد من مربط الكلام ... » (١) .

ولكن أبا المغيرة لا يستمر على نهجه هذا في ذكر محاسن الرجل وتعداد مآثره وانما يتحول إلى الحديث عن تغير الرجل عما كان عليه ، وأول دلائل ذلك تركه الشعر ثم تخليه عن الأدب جملة حتى صار عالة عليه وغدا غريباً عنه ، ونزع إلى العزلة المفضية إلى نوع تصوف وزهد وبهذا يكون قد نفض يديه من الأدب وأهله وأيقن بعدم جدوى السير في طريقه : « ... حتى إذا رأى تلك الأسباب رثاثاً وعاين جرم وسائلها انكاثاً طلق عرس الشعر ثلاثاً وصار لا يرى نجعة الأدب ولو أوطأته على أرض الذهب فمن سماه أديباً فقد تملقه ، أو وسمه شاعراً فقد أبطل حقه ، حتى إذا لقي من كريم صوناً وعلى ما يحاوله عوناً ، ذكر فشكر ثناء كالزهر تحت انداء السحر ، وأمسك من الأداب على هذا الذناب ، ولو لا ان يسر بهذا القدر ذا قدر لصدق الحملة وسماها من صدره جملة ونزع إلى تصوف يحمد فيه رأيه .. » (٢) .

(١) المصدر نفسه ص ١٥٢ – ١٥٣ .
(٢) الذخيرة / ابن بسام ق ١م١ ص ١٥٣ .

وفي هـــذه السطور تقرأ عبارات تدل على هدوء المزاج والاحتكام إلى العقل والروية مع نفس نقدي لا يخلو من عتب رقيق أو لوم رفيق على ترك الشعـر واعتزاله على الرغم من كل الأسباب التي قد تكون وراء هذا الترك كما ان العبارات تدل كذلك على ان المخاطب بها قد لجأ بعد الشعر إلى النثر ليصوغ به شكره لمن أحسن اليه بعون أو تأييد ، وفضلا عن ذلك فقد اتسم التعبيـــر بالمباشرة وقلة ممارسة الزخرفة للفطنة التي قد تلاحظ في رسائله بعامة مهمـا اختلفت موضوعاتها وتعددت أغراضها .

ومما يعبر عن العلاقة السلبية بين أبي المغيرة وبعض اقرانه ويتدرج فـــي الرسائل الأخوانية ، رسالة يسير فيها على طريق الازدراء والتهكم مستعيـــراً الأمثلة المزرية والعبارات المؤثرة مع ضرب الأمثال وذكر اسماء لازمة لهـــا مع تجنب ذكر اسم المخاطب المعني بها ، وقد جاءت أيضاً تحت عنوان : « وله من أخرى يقول : » ... بانعكاس الزمان ، انعكست أمثال البيان ، كما يروي في خبر الفتى المدعي للكتابة عند عمرو بن مسعدة ؛ أنه عاياه بكتاب صاحب البريد بخبر بقرة ولدت غلاماً ، فأنشأ خطبة مفتتحها : الحمد للـــه خالق الأنام في بطون الأنعام ، فجذب الرقعة من يده وبالغ في اجـــــزال صفده ، وإذا تأملت انقلاب الزمان وما وقع لي مع فلان انقلبت الخطبـــة فصارت : الحمد لله خالق الأنعام في بطون الأنام ... » (١) والذي يفهم من هذه السطور أنها مجتزأة من أصل أطول وأكثر تفصيلا وتوضيحاً وأنها بذلك لاتمثل الرسالة في بدايتها ، إلى جانب كونها تهدف إلى الانتقاص من شخصية يشير اليها الكاتب بفلان ويربط وجودها بتغير الزمان وانقلاب الموازين ، ثم يضرب المثل في قصص مشرقي لا يبعد عن الأدب ان لم يكن من صميـــم بنائه ؛ فعمرو بن مسعدة واحد من الكتاب المشهورين في المشرق في العصر العباسي ؛ ولعل أبا المغيرة أراد ان يعلم قارىء رسالته أنه مطلع على أحوال المشرق في الأدب وعلى صعيد الكتاب بصورة خاصة .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦٠ - ١٦١ .

والرسالة بعد ذلك تشير إلى جانب من أحوال المجتمع الأندلسي في عصره حين قوى نفوذ اليهود بشغلهم بعض المناصب في الدولة واستغلالهم مواقعهم في التدخل في شؤون أخرى لا تعنيهم فضلا عن كيدهم المنبعث من حقدهم وعدائهم للاسلام والمسلمين فيقول : ... وأبدأ بحديث اليهودي موصل كتابك : دخل الحضرة عقب جولة كانت لي مع ابن مخامس — حشر الله كليهما مع صاحبه — فوالله لا أعلم حال من منهما أضعف وأظلم ؛ أحال اليهودي بمضادة الدين أم حال هذا المسلم ؟ توافى وقد كشفت عوراته وما زالت مكشوفة ، وعرفت سوآته وما زالت معروفة ، اخباراً عنه وتحذيراً منه ، واعلاماً لما يستره ذيله ويشتمل عليه من قبائح يمليها العار ويكتبها الليل والنهار ... » (١) .

ثم يوغل أبو المغيرة في الفقرة التالية في وصف الشخص بصفات سيئة تجعله مثلا في الزراية وعلماً على ضحالة التفكير وسوء الخلق مع غرور وتكبر وطيش لا يتناسب مع قلة العلم وسوء الفهم وشدة الغباء وضمور المكانة وضعف الصلة بافراد مجتمعه .

وهي على كل حال دليل واضح على العلاقة التي تربط بين ابي المغيرة ومعاصريه في جانبها السلبي المنطوي على العداء والبغض إلى جانب كونها تدل على وضع اليهود في ظل دولة الأندلس في هذه الفترة وما كانت جهودهم تهدف اليه في تقويض دعائم سلطان المسلمين في هذه البقعة حتى تم لهم ولغيرهم من مساعديهم ما أرادوا في القرون التالية وكانت النهاية المؤلمة والطعنة النجلاء للحضارة الأسلامية خاصة والحضارة الأنسانية بعامة متمثلة في ضياع التراث الكبير الضخم من المؤلفات في شتى العلوم والفنون وألوان المعرفة والثقافة التي ظلت ردحاً طويلا امتد عدة قرون تشع نور التقدم والعمران والازدهار في ميادين الحياة جميعها إلى أوربا وإلى العالم أجمع في عصور الظلام والاقطاع والرق والتأخر . وذلك ما شهد به ويشهد دائماً

(١) الذخيرة / ابن بسام ق ١م١ ص ١٦٠/١٦١ .

المنصفون من المؤرخين والباحثين مسلمين وغير مسلمين وفي مقدمتهم عدد من المستشرقين من أمثال غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » وفون جرونباوم في كتابه : « الوحدة والتنوع في الحضارة الأسلامية» والمستشرقة الألمانية : سنجريد هونكة في كتابها المشهور « شمس العرب تشرق على أوربا» وغيرها من المؤلفات التي لا تكاد تحصى في هذا الباب ، ولكنها مشهورة معروفة لدى المعنيين بدراسة هذه الحضارة من خلال ما تبقى من تراثها العلمي والأدبي والعمراني وغير ذلك .

رسائل المراجعات والمجاوبات

يأتي هذا النوع من الرسائل في مقدمة ما يعرضه ابن بسام من صور نثر أبي المغيرة ، مبتدئاً برسالة كتبها أبو المغيرة رداً على رسالة لابي علي الحسن إبن الربيب (١) كان الأخير قد وجهها إلى أبي المغيرة يعاتب أهل الأندلس — من خلال خطابه لابي المغيرة — على تقصيرهم في تسجيل مآثر علمائهم وأدبائهم مع كثرة هؤلاء العلماء ووفور حظوظهم في ميادين التأليف والتصنيف في نواحي العلوم والأداب والفنون المختلفة المتنوعة مما أدى إلى ان يتصدر محافل الأندلس من قل علمهم وتصاغرت في ميادين التأليف جهودهم فيقول ابن الربيب « اني فكرت في بلدكم أهل الأندلس إذ كان قرارة كل فضل ومقصد كل طرفة ومورد كل تحفة ؛ إن بارت تجارة أو صناعة فاليكم تجلب ، وان كسدت بضاعة فعندكم تنفق ، مع كثرة علمائه ووفور أدبائه وجلالة ملوكه ومحبتهم للعلم وأهله ورفعهم من رفعة أدبه ، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب يقدمون من قدمته شجاعته وعظمت في الحروب مكانته فشجع عندكم بذلك الجبان وأقدم الهيبان ونبه الخامل .... » (٢) .

ثم يشتد في لومه علماء الأندلس بقعودهم عن تسجيل مآثرهم وتصنيف

(١) ابو علي الحسن بن الربيب الحسن بن محمد بن احمد بن الربيب التميمي القيرواني . ولم يزد صاحب النفح على هذا في التعريف به / ينظر نفح الطيب حـ٤ ص ١٥٢ .

(٢) الذخيرة / ابن بسام ق ١م١ ص ١٣٣ — ١٣٤ .

ما وعوه وحفظوه من علومهم مؤثرين الدعة والخمول على الجد والعمل والمثابرة، وأيثار العاجلة على الأجلة ولم يكن نظرهم بعيدا وتقديرهم سديداً ، ويرد ابن الربيب بعد ذلك على ما قد يجيب به أبو المغيرة من وجود عدد قليل من العلماء عنوابالتأليف والتصنيف في القرن الرابع وما سبقه ؛بأن هذا التأليف لوكان حقيقة واقعة لعلم أهل المغرب به قبل غيرهم لقربهم من حاضرة الأندلس وقوة الصلات التي تربط بينهم وبين أهلها ومن أدلة ذلك استقبال أهل المغرب لتأليف ابن عبد ربه — العقد — بالتقدير والبشر وان كان يلحق مؤلفه شيء من اللوم إذ لم يجعله خالصاً لأهل الأندلس مستوعباً لاخبار علمائهم ومؤرخيهم وأدبائهم ، يقول من ذلك : « ... فان قلت ان كان ذلك من علمائكم والفوا كتباً لم تصل الينا فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق لأنه ليس بيننا وبينكم الا روحة راكب أو دلجة قارب ، لو نفث ببلدكم مصدور لأسمع ببلدنا من في القبور ، فضلا عمن في الدور والقصور ، وتلقوا قوله بالقبول كما تلقوا ديوان ابن عبد ربه الذي سماه «بالعقد »على أنه يلحقه فيه بعض اللوم ، إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده ومناقب ملوكه : يتيمة سلكه ، لكنه أكثر وطول وأخطأ المفصل وأطال الهز بسيف غير مفصل وقصد به ما قصد بأصحابه من ترك ما يعنيهم ، واغفال ما يهمهم ؛فأرشد أخاك — أرشدك الله — ان كان عندك في ذلك الحلية وبيدك فصل القضية ان شاء الله » (١) .

ثم يورد ابن بسام — فصولا على عادته — من رسائل أبي المغيرة الجوابية على الرسالة السابقة لابن الربيب ، يقدم فيها أبو المغيرة بمقدمة مفصلة بعبارات الود والأخاء والتقدير للرسالة وصاحبها والمعاني التي تضمنتها ، وقد وضعها ابن بسام تحت عنوان « فراجعه أبو المغيرة برقعة حذفت أكثر فصولها لطولها » . ؛ يقول أبو المغيرة : « أبقاك الله من حميم صريح الود ، أهدى التحية على البعد ، فان الفهم رحم والأدب ما بين أهله رسائل ودمم ، وليس عدم التراثي والعيان بقاطع للأسباب والأقران ،

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

ولا تنائي الديار والمنازل بتمادح في الأذمة والرسائل ، فالكتاب عوض عن الكلام والتواصل بالنفوس لا بالأجسام وما زلت أتنسم ذكرك فاترسم قدرك واسمع خبرك » (١) وتتوالى عبارات أبي المغيرة على هذا النهج في التعبير عن حبه وتقديره لابي علي . وشكره على مراسلته والبدء باستئناف الصلة بين المتحابين من أهل الأدب والعلم فيما يشكل مقدمة وتوطئة بين يدي الرد على مضمون الرسالة وهدفها الأساس ويؤكد هذا ما يفهم من الفترة التالية التي توحي بأن أبا المغيرة سيرد على الرسالة بالتفصيل مع الشرح الوافي والتأكيد على مناقشة كل مسألة والرد على كل مثلبة لتبرئة أهل الأندلس ودفع التقصير عنهم في حق أنفسهم وبلدهم فيقول : « فأول ما قدمت في كتابك ما يقدمه ذو الفضل والنبل في الثناء على بلدنا وأهله ووضعت الجميع على اختلاف طبقاتهم . وتباين درجاتهم من ارائهم التي نحوها ، وعلومهم التي وعوها بأوفر الأقسام وأحتلالهم في ذلك بالغارب والسنام ؛ حتى عارض الجبان الأسد » (٢) ولكن أبا المغيرة يأتي بعد هذه العبارات الودية إلى الرد الذي يجنح إلى الشدة في العتاب وأشعار أبي علي بأنه متجن على أهل الأندلس مغفل لجوانب من جهودهم في تسجيل مآثرهم العلمية والأدبية ونستشهد ببعض عباراته الدالة على ذلك :

«... هذا معنى كلامك لم أورده بألفاظه وان أصميت اغراضه اشفاقاً من ان افضح كلامي به وأدل على قصور آلتي بمجتلبة فأكون كمن جمع بين الشبه والذهب ،وقرن الدر إلى المخشلب ؛ ثم قلت : ان ذكر الفتى عمره الثاني والميت المجهول لا الفاني .. » (٣) ويخلص أبو المغيرة من ذلك إلى تفنيد أقوال أبي علي بأسلوب يتسم بحدة وتأثر وينم عن قدر واضح من الانفعال والغضب تأثرا لقومه وحرصاً على اثبات فضلهم والاشادة بجهودهم مؤيداً قوله بشاهد شعري يتألف من بيتين يناسبان المقام ولكن ابن بسام لا يسمح لهذه

(١) الذخيرة / ابن بسام ق ١م١ ص ١٣٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٧ .

المناقشة بأن تستمر إذ يقطعها بايراد فقرات أخرى تحت عنوان « وفي فصل منها » يتناول فيه ابو المغيرة التذكير بأن أهل الأندلس معروفون مشهورون عن طريق آثارهم ومصنفاتهم في شتى أنواع العلوم والمعارف والأدب والفنون مستنكراً صدور الاتهام لهم من رجل له مكانته العلمية وفضله واطلاعه ؛ فيقول من جملة ذلك : (ولو لم يعلم لنا خبر ولا ظهر لنا اثر وبقينا لايعرف مكاننا ، الاباخراج قسمة الأقاليم لنا ، والحاجة من الجغرافيا إلى ذكر صقعنا لكان عذرا في التقصير عن اشهار الفضل لاثماً ، وان كان نهجنا لمأخذه والعلم به واضحاً ، وان كنت باطلاق قولك قد جاهرتنا — وحقك — بالظلم مجاهرة أنا أعجب كيف انقاد كريم طبعك لها واعجب أيضاً من نجوعي لك ووقوفي عن الانتصاف منك وأنا أعلم ان عندكم لنا تواليف تطيرون بها وأشهد بتقصير أربابها ... » (١) على ان أبا المغيرة لا يمضي في الشوط إلى نهايته في شدة العتاب وقوة الانفعال . بل تراه يعود إلى أسلوب اللين والود بالاعراب عن الصلة بينهما بعد ان يمهد لذلك بمزيد من الاشادة بأهل الأندلس وفضلهم وشدة تعجبه من تجاهل ابن الربيب لذلك كله مع علمه به واطلاعه عليه فيقول : « ... وان ودا أعقل لك لساني ولم يجر الا بما تؤثره وتختاره بناني ، لود يفضح الروض في حزنه ، برائق حسنه ورضوى في هضبه يثقل وزنه ونوء السماك في هتنه بوابل مزنه ، وما هي الا شيمة قديمة فيكم أهل الجهة الظاهرة أعلامها الباهرة علومها وأفهامها...»(٢).

وفي خضم هذا المديح والتودد إلى أبي علي وقومه في المغرب يقطع علينا ابن بسام تلك الأوصاف وعبارات الثناء وصيغ الاعتراف بفضل المغاربة ومكانتهم وتقدمهم في سياق مناقشة طريفة وموازنة رقيقة ، معتذرا في قطعها الانتقال إلى غيرها بطول الرسالة وخروج أبي المغيرة إلى التطويل والمبالغة في الاحتجاج مشيراً إلى لمحة موجزة من مضامين الفصول الأخرى — وهي المهمة — مما لم يذكره ولم يورد نصوصه فيقول ابن بسام : وخرج أبو

(١) الذخيرة ق ١م١ ص ١٣٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

المغيرة في رسالته هذه إلى التطويل وبالغ في الاحتجاج بفصول هي عادلة عن هذه السبيل وختمها بذكر جملة من تواليف أهل الأندلس اضربت عن تسميتها لشهرتها ...» (١) .

وبهذا يكون ابن بسام قد أخطأ كثيرا بل تجنى على أهل الأندلس كما حرم غيرهم من معرفة عديد من أسماء المصنفات والتآليف الكثيرة التي نص هو على ان أبا المغيرة قد ذكرها في رسالته وأسهب في سرده موضوعاتها وعرف بها ولو مختصرا .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان الرسالة المذكورة لابي علي ابن الربيب قد حظيت برد آخر ربما كان ذا قيمة علمية وأدبية أكبر وأوضح ذلك هو رد أبي محمد بن حزم الفقيه الأديب وقد أورد المقري نص رده هذا في سفره القيم المعروف وذلك فيما يبدو نقلا عن الذخيرة لابن بسام الذي أكد ان الرسالة أصلا موجهة لابي المغيرة بن حزم ولكن أبا محمد أراد ان يسهم في الانتصاف لبلده واثبات فضله وتقدمه في ميادين الحضارة والعلم والأدب والفن فكانت رسالته فيما ورد فيها أكثر تفصيلا وأشد تأكيدا على أهل العلم وأثارهم وجهودهم في ميادين شتى .. (٢) .

وذلك قد يعود إلى ابن بسام نفسه الذي ذكر من رسالة أبي محمد أكثر مما يذكر من رسالة أبي المغيرة فيما يبدو ومن هذا النوع أيضاً رسالة كتبها أبو المغيرة رداً على رسالة أخرى تلقاها من الوزير الكاتب أحمد بن عباس ، وكان الأخير قد تلقى كتاباً — كما سماه في رسالته — من أبي المغيرة بيد رجل ذي أوصاف معينة أثارت انتباه الكاتب ابن عباس ودفعته إلى كتابة سطور إلى أبي المغيرة يصف حامل الكتاب ويطنب في ذكر صفاته التي تدعو إلى الزراية والسخرية ومنها : « ... أنهى إلى كتابك رجل طويل القامة صغل الهامة بعينيه لبانه وعلى أسنانه طرامة ، وفي شاشيته وضارة وفي منطقه لكنة

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .
(٢) ينظر نفح الطيب حـ٤ ص ١٥٤ نص رسالة ابن حزم .

صعبة وعلى انفه عقدة كالكبة وفي أطواقه شفة يخرج فكاه من أقطارها»(١).
ويستمر ابن عباس في رسالته على هذا النهج واصفاً شعوره عند رؤية الرجل وما دار في خلده حول غرض الرسالة ومقصد أبي المغيرة في تكليف الرجل الموصوف بحملها مع ما امتاز به من صفات في مظهره وشكله وملبسه وهيئته يورد ابن بسام بعدها نصاً يفهم من عبارته انه جزء من الرسالة التي رد فيها أبو المغيرة على ابن عباس المذكورة وقد وضعها تحت عنوان : (ومن جواب أبي المغيرة عليها) مما يؤكد أنه لم يورد الرسالة من أولها وذلك ما يفهم أيضاً من بداية النص المذكور فهو يقول بعد العنوان :

« .. وأرجع من كتابك إلى ماركض جواد الهزل وشهر سلاحه ونشر علمه ، وشب زبون حربه وأوقد وطيس متنه ، بل إلى ما مد بساطه وفرش انماطه وادار كؤوسه وأماط عبوسه وحرك أوتاره ونبه اطياره بل إلى ما أقام لعبه وحرك لبه وأحضر مجونه واشتجر بفنونه وزمر في بوقه وبقر بطن دفه ، ورقص إلى ايقاع لحنه وترهب في غير خالقه ، ولم يدع من الحد طرفاً ولا للهزل سبباً الا وتمسك به فهو القائم القاعد والقوي الراشد في وصف الطاري ء بالكتاب عليك الذي هذبه الزمان وقاده اليك الخذلان وحمله اليك من أنزح مكان ... » (٢) .

وإذا كانت الرسالة ماضية في هذا النهج من ترادف العبارة والرد والنقض لما ورد في رسالة ابن عباس ؛ فانها تقترب — كما يبدو من حيث أسلوبها ومضمونها من هذه الرسالة وان كانت تختلف عنها في كونها رداً عليها ونقضاً لما ورد فيها باسلوب هو أسلوبها نفسه فيما اعتمده من الزراية والسخرية والطعن اللاذع وتسفيه الرأي المقابل واظهاره بمظهر العاجز القاصر عن الادراك والفهم مع انكاره للحقائق الدامغة والحجج القاطعة لغاية في نفسه يريد قضاءها ، وأبو المغيرة في هذا كله لايكتفي بالرد والنقض وانما يأتي بما يثبت عكس الأوصاف الواردة التي رآها أو تخيلها ابن عباس في حامل

(١) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق ١م١ ص ٦٤٥ وما بعدها .
(٢) المصدر نفسه ق ١م١ ص ٦٤٨

رسالته ؛ يقول أبو المغيرة : « ... فعهدي بجبينه كالصحيفة الصقيلة ، وخده كمرآة الغريبة ، وعينيه كناظر صقر طار على مرقب،وضفدع نظر من خلال طحلب وأنفه كغرار سيف ليس الذي قلدته به وأبتيت حمائله في عنقه . ولسانه كمخراق لاعب ويصوت شبيب به تئيما ، وزجر أبي عروة همساً خفياً وأثوابه تزري على اليمن بشرف الصنعة صنائعها ... » (١) . وتتوالى هذه الصفات حتى تكاد تغطي كل ما ورد من الصفات السابقة في رسالة ابن عباس، غير ان ابن بسام يقطع الرسالة – على عادته – ويتوقف عند نهاية هذه العبارات المفعمة بالاستنكار الساخر والتعجب الهازىء »... فكيف انقلبت هذه العين وانسلخت من ذلك الزين وصارت آبدة تلهي ، ونادرة تجري لولا ما هيأه سعدك وسببه حدك ، وقد قام النوروز بما وجب عليه ، ولم يوجدك السبيل واليه فارتقب من المهرجان نعتها وانتظر فيه شكلها ، وكنت أسومك مساجلتي بنظير مقابلتي بمثيلها لكن من لي بمساعدة الزمان بقسطك والأخذ فيه بشرطك (٢) والمتأمل فيما ذكر من نصوص الرسالتين في الذخيرة أو السطور التي وردت هنا يلاحظ أنهما تسيران في نهج المقامة من حيث اعتمادهما السخرية والازدراء والفكاهة المعتمدة على التصوير المعبر والتمثيل الهادف إلى تجريد الخصم من كل صفة حسنة ، وذلك بتسفيه رأيه ونقض حججه جرياً على عادة أصحاب المقامات في المشرق (٣) . وقد أكد الباحثون في الأدبين المشرقي والأندلسي الصلة بين هذه النصوص وأمثالها وأشاروا إلى اهتمام الأندلسيين بآثار أخوانهم المشارقة الذين يعدون اساتذتهم في ميادين الأدب نثره وشعره ومن الرسائل التي يمكن ان تسلك في المراجعات والحوار والمجاوبة ثلاثة نصوص أوردها ابن بسام في ذخيرته ؛ اثنان فيها لابي المغيرة ونص واحد لابي محمد بن حزم الفقيه وذلك في سياق التعبير عن العلاقة المتوترة بين الأديبين على قرب ما بينهما من صلة النسب والقرابة والرحم

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٤٨ – ٦٤٩ .

(٢) الذخيرة / ابن بسام ق ١م٢ ص ٦٤٩ .

(٣) ينظر مثلا : الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه / مصطفى الشكعة ، ص ٥٨٣ – ٥٨٨ فقد عقد الباحث موازنة بين نص لابي المغيرة وآخر لبديع الزمان حيث تبدو الصلة بينهما واضحة:

وقد وضعها ابن بسام تحت عنوان « وله من أخرى خاطب بها أبا محمد أبن حزم أثبت منها بعض فصولها فراراً من التطويل وافتتحها ببيتي أبي نواس

الا لا أرى مثل امترائي في رسم توهمه عيني ويرفضه وهمي
أتت صورة الأشياء بيني وبينه فظني كلا ظن وعلمي كلا علم

وقفت — كلأك الله — وأنت عين التمام وعلم الأعلام على كتاب عنوانه باسمك أسمال ، كأنه طلل بال ، فكلما هززته هوم وسألته استعجم ، معنى كصدي الانسان ولفظ كمنهجات الأكفان ، وأغراض لايدب فيها سهم مقرطس ، واظلام لا وضح فيه لصبح متنفس ، ورطانة تمجها الأسماع وتحتويها الطباع فاقمت متبلداً وعدت على نفسي وقريحتي متردداً ... »(١).

وفي هذا المطلع الذي لا يمثل أول الرسالة وافتتاحها ، يبدو لنا أبو المغيرة يهادناً ودوداً أول الأمر فقد وقع بيده كتاب لابي محمد بن حزم لم يسمه ولم نذكر عنوانه أو موضوعه ، ولكنه لا يلبث ان يشير اليه بالطعن الصريح والزراية القوية مستهيناً بمضمونه دون ان يوضحه أو يذكر شيئاً عنه ، غير ان الرسالة بعموم تعابيرها تدل على تردي العلاقة بين الأثنين وتدفع إلى القول بحسد أبي المغيرة ابن عمه أبي محمد وذلك لعجزه عن الوصول شأوه والارتفاع إلى مستواه في ميدان التأليف المنوع والتصنيف الموسع في جوانب المعارف والعلوم والاداب .

يبدو هذا واضحاً في عبارات الرسالة وما ورد فيها من أوصاف بيانية تهدف إلى السخرية والأزدراء والاستهانة بالعلم وأهله بالتقليل من أهمية الكتاب الذي وقع بيده وهو يمض على هذا النهج عبر سطور رسالته أو الأجزاء التي أوردها ابن بسام منها وهي طويلة على الرغم من كونها مقتطعات ومختارات من الأصل . يقول أبو المغيرة : تحت عنوان « وفي فصل منها » : « ... فاستقصرت من دفع إلى كتابك فقلت : من لي بمثل غاشيتك ، هذه

---

(١) الذخيرة / ق ١م١ ص ١٦١ — ١٦٢ .

العصابة وبأشباه الملمين بك في تلك البابة، ونسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التي صرت رئيس مدارسهم وكبير أحراسهم ، تحدثهم عمّا كان فيهم من العبر وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن السامريين والعجل وتارة عن القمل والنمل وطوراتبكيهم بحديث التيه ... » (١) .

وبعد ان يمضي في تعداد مزيد من هذه الأيماءات الساخرة المزرية بالعلم وأهله قاصداً النيل من أبي محمد ومكانته العلمية في التدريس والتعليم فضلا عن التأليف والتصنيف مستعملا الأسماء الدالة على احداث وقصص وأحكام في القرآن الكريم بعد هذا كله لا يقف عندما ذهب اليه بأسلوبه الساخر وتذكيره بسابق حياة أبي محمد كما يصورها أو يراها أبو المغيرة بل يحاول ان يختم الرسالة بعبارات أخرى ربما كانت أشد من سابقاتها وابعد أثراً في الزراية والسخرية والحرص على تجريد الخصم من كل حسنة مهما كانت ثابتة معروفة مشهورة فيقول :

« ... ومن لك بأن نصبر عليك ونتأنى بك ، هذا الجواب كما تراه أبن الوقت ونتيجة الساعة ونفثة من لا يخرج له الكلام عن طاعة ،ومن تشغله عن التفاسير كلف السلطان وتثقله أعباء الزمان كاد ينتقش في ظهر كتابك قبل حصوله بيدي :

فقل فيما يجيء عليه ليل ... ويمضي في صياغته نهار
هنالك تظهر الايات حتى ... يقال تناثر الفلك المداز (٢)

ثم يورد ابن بسام رد أبي محمد على هذه الرسالة بكلام موجز دال على ثقة بالنفس وترفع عن الفحش والبذاءة والجهل مع حرص واضح وعناية شديدة بصلة الرحم والعفو عن الظلم والاعراض عن الجاهلين وكان من ذلك ما نقله ابن بسام :

---

(١) الذخيرة ق ١م١ ص ١٦٣ .
(٢) نفسه ص ١٦٤ .

فراجعه الفقيه أبو محمد برقعة قال فيها : ((سمعت وأطعت لقوله تعالى (وأعرض عن الجاهلين) وسلمت وأنقدت لحديثه عليه السلام : : « صل من قطعك وأعف عمن ظلمك « ورضيت بقول الحكماء : كفاك انتصارا ممن تعرض لأذاك اعراضك عنه : وأقول :

تبغ سواي أمر رأيبتغي سبابك ان هواك السباب
فاني أبيت طلاب السفاه وصنت محلي عما يعاب
وقل ما بدالك من بعد ذا وأكثر فان سكوتي جواب (١)

ولكن هذا الأسلوب الحكيم الذي ينطق بالفقه والأدب والحكمة والثقة بالنفس لا يردع أبا المغيرة ولا يمنعه من الايغال في الرد القاسي والتعبير الشديد بألفاظ لا تناسب مقام أبي محمد ولكنها تدل دلالة واضحة على نفسية أبي المغيرة وحقيقة موقعه من أبن عمه فهو يفتتح رده بقوله :

(قرأت الرقعة العاقة فحين استوعبتها أنشدتني)

نحنح زيد وسعل لما رأي وقع الاسل

فأردت قطعها وترك المراجعة عنها فقالت لي نفس قد عرفت ذكاءها : تالله لاقطعتها الايده ؛ فأثبت على ظهرها ما يكون سبباً لصونها وقلت...»(٢).

ويورد بعد ذلك ابياتاً بائية وأخرى رائية تدور في معاني الهجاء الدال على التأثير البالغ والحنق الشديد والرغبة في النيل من الخصم والانتقام منه حتى ولوكان قريباً عالماً أديباً معروفاً ، فضلا عن كونه تربا حميماً وصديقا قديماً .

ولا شك ان هذاالنهج من أبي المغيرة تعبير عن نفسيته وطبعه المتسم بالحدة والتحامل المدفوع بقدر غير قليل من الاعتداد بالنفس والغرور بما يملكه الأنسان من مواهب وقابليات قد تغتر بها نفسه فترى فضلها على كل ذي فضل.

(١) نفسه ص ١٦٤ .

وإلى جانب ذلك فان موقف أبي المغيرة يعبر عن العلاقة بين الأدباء والطابع الذي يبدو عليها وهو من آثار الفتنة ونتائجها على صعيد الأدب والعلاقة بين الأدباء حتى ولو كان ذلك على حساب علاقة القرابة وصلة الرحم التي يفترض ان تكون قبل غيرها من الصلات .

وأخيراً فان هذه النماذج في المراجعات والمجاوبات تعرض لنا — فيما تعرضه — صورة لشخصيتين تختلف كل منهما عن الأخرى ، وتدعونا إلى النظر في الموازنة بينهما من حيث امتياز الأولى — شخصية أبي محمد — بالهدوء وضبط النفس والترفع عن الانسياق في مواقف التجني والتجاوز بأساليب التقريع والازدراء والسخرية دون تحرج . وامتياز الثانية — شخصية أبي المغيرة — بسمات الحدة والتجني والاندفاع في الحط من مكانة الخصم إلى درجة كبيرة من السخرية والازدراء والامتهان مع عدم الاعتراف بأي فضل للشخصية الأخرى على الرغم مما حازته في ميادين العلم والأدب والحكمة وغيرها .وهذه النماذج لا يكاد يخلو منها مجتمع عبر التأريخ فضلا عن مجتمع الأدباء وما يكون في الغالب بينهم من منافرات وغيرة وحسد يؤجج نار العداء والخلاف ويدفع القلم إلى غير هدفه ويوظفه في غير ما خلق له .

الرسائل الاجتماعية :

نقصد بهذا النوع من الرسائل تلك التي تعالج موضوعات ذات صلة أقوى وأوضح من غيرها بالمجتمع وأحواله وعلاقات أفراده فيما بينهم ، وألوان تعاملهم وتخاطبهم ، وهي وان كانت قريبة من مضامين الرسائل الأخوانية من حيث المعنيون بها وأكثرهم من أصدقاء أبي المغيرة وأنداده — كما تدل على ذلك نصوص العديد منها — الا إنها تمتاز بتركيزها على الجانب الاجتماعي إلى جانب عنايتها بأحوال المجتمع الأندلسي في عصر أبي المغيرة ذلك العصر الذي كان يعج بالاضطرابات والصراع على السلطة فضلا عن

التعرض لهجمات الاسبان المغيرين المتربصين بالمسلمين مستغلين انشغال الحكام فيما بينهم من خلاف وصراع حتى سماها بعض مؤرخي الأندلس : « الفتنة المبيرة» — ولهذا كان من البدهي ان ينعكس ذلك على أحوال الناس وتصرفاتهم ، ويطبع علاقاتهم بطوابع التجني والتجاوز والظلم والافراط في العداء ؛ظهرت اصداؤه في أوساط الأدباء قبل غيرهم واتسمت علاقاتهم بالسلبية القائمة على العداء والكراهية والكيد وترجموا ذلك في أشعارهم ورسائلهم سواء بممارستهم لكل فن منهما بصورة مستقلة أو بصورة مشتركة تجمع بين النثر والشعر في رسالة واحدة كما هو شأن أصحاب الملكات المزدوجة ....

وفي مقدمة ما نشير اليه هنا من الرسائل المتضمنة للمعاني المذكورة ما دار بين أبي المغيرة وأبي محمد بن حزم من رسائل احتوت عبارات مؤثرة دلت على مدى تردي العلاقة بين الأديبين وقد ذكرت نماذج منها في موضوع المراجعات والمجاوبات لما اتسمت به من أسلوب الجواب والمراجعة والحوار أكثر من غيره .

على أن هناك نماذج أخرى جاءت معبرة عن أحوال المجتمع بصورة أوضح وصلة أقوى ومنها تلك التي تعبر عن الدعوة إلى التعاون والتناصح والتذكير فيما بين الأخوة والأصدقاء بأمور مهمة ذات صلة مباشرة بأحوال المجتمع ؛ فنجد مثلا ان ابا المغيرة يخاطب احد اخوانه — دون ان يذكر اسمه — في أو جزء من رسالة وضعها ابن بسام تحت عنوان «وله من أخرى »يقول فيها :

« ... أعزك الله — في الاحتماء حسم الداء ، ولاعدو للانسان الا نفسه ولاحية ولاعقرب الا جنسه ،وليس في الحيوان أخبث في ذاته من الانسان ، فالاحتراس كل الاحتراس والمعاشرة الجميلة للناس ؛ فأبصر بصيرتك وأحسن سريرتك ، ولاتلدغ من جحر مرتين ، وأذكر المثل السائر في اللاعب بين

وتدين والعاقل من حمله كل بلد ، ونفق عند كل أحد ، وأعقل منه من عرف الناس ولم يعرفوه فاستراح من اجنبي متكلف أو قريب غير منصف ، ولم يفتقر إلا إلى ربه ، ولم يأنس الا بنور لبه .. » (١) .

ونفهم من هذه السطور جملة من المضامين الأجتماعية التي قصدها أبو المغيرة ورأى انها خطيرة مهمة يجب التنبيه اليها والتذكير بها وملخصها وجوب أخذ الحذر والاحتياط أزاء أهل الغدر والخيانة مع ممارسة أقصى درجات الحكمة والتعقل في الأمور بحيث يعلم الأنسان ما يأخذ وما يدع ... على ان هـذه المعاني لا تخلو من دلالة واضحة على كثرة أهل الغدر وانتشار قلة الوفاء بين الناس حتى اقتضى ذلك الدعوة إلى الحذر الشديد بالبعد عن الناس ما امكن لتفادي ما قد يترتب على مواقف هذا الصنف من الناس وتصرفاتهم من عواقب سيئة في حياة الأنسان البريء . غير ان هذه الدعوة من أبي المغيرة لا تخلو كذلك من تعبير عن سوء ظنه بالناس جميعاً واتهامهم بالغدر والخيانة إلى حد ان يرى ذلك طبعاً فيهم وفطرة جبلوا عليها وهذا مما لا يتفق مع ما خلق الأنسان عليه من سلامة الفطرة وقوة الاستعداد لفعل الخير الا ان يستحوذ عليه الشيطان فيكدر هذه الفطرة ويصرفها إلى غير وجهتها . ونجد قريباً من المعاني المتضمنة في الرسالة السابقة معاني وردت في سطور جاءت في الذخيرة تحت عنوان : « وله من أخرى » : يصف فيها أبو المغيرة حاله بين أقرانه بصيغة أقرب إلى الشكوى مما يجده ويحس به من كثرة الحساد والكائدين مع نفس متعال متفاخر بالنفس ومآثرها واعجاب بثباته ووقوفه ضد الاعداء والمبغضين على الرغم من كثرتهم واشتداد كيدهم ؛ فهو جلد صابر محتسب لا يخاف ولا يتردد ولا يضعف ولا يهون : « فكم ليث في غابة سمعت صريف أنيابه ، وقفر انست في يبابه إلى عواء ذئابه ، لا أمر الا باللص المستلب ولا ألقى غير المحارب المنتهب ، وشعاري عند النائبة القاها فأتخطاها والنازلة أراها فأتعداها قول أبي الطيب :

(١) الذخيرة / ابن بسام – ق ١م١ ص ١٥٣– ١٥٤ .

فـان أسلـم فمـا أبقـى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام(١)

ولكن أبا المغيرة لا يدع هذه الصورة القاتمة تستحوذ عليه وتستغرق مشاعره أو تأخذ باقطار نفسه وانما يحاول ان يثبت لنا أنه لم يلبث ان يجني ثمـرة صبره ومصابرته وثباته ازاء الملمات فاذا هي قد انقشعت وأفضت به إلى الفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر والخصب والرفاه بعد الجدب والجفاف حتـى تغيرت حالة من البؤس والشقاء والمعاناة إلى الراحة والسعادة والرفاه ؛ شأن المثابر الصابر المجد الذي يتذرع بالاحتساب وقوة الارادة وثبات العزيمة :

« ... وأنا أرقب من الزمان صنيعه وانتظر الحمام وأتخيل وقوعه وهو يذهب بي إلى قبلة الأ مال ، وأنا لا اصدق،ويسوقني إلى محط الرحال وأنا لا أحقق ويؤم بي البحر الذي لا تحصى فوائده والغيث الذي لا يخيب رائده ، وهللت أحماداً لما سقطت عليه ، وعلمت أنني في الحرم الذي لا يوطأ رحابه ولا يطار غرابه ، ولا يخضد شجره ولا يمنع ثمره ، ولم البث ان نزلت باليفاع وتمكنت من الرشاء والقليب ... » (٢) .

وربما فهم الباحث من هذه السطور وما بعدها ان أبا المغيرة يشير إلى غربة عاناها ، وبعد عن الأهل وجفاء من أحد الأمراء ؛ حرم بسببه من الكرم والعطاء وحال بينه وبين العيش السعيد المرفه ، غير ان حالته هذه لم تدم فقد حل في تلك الرحاب التي وصفها بالجنة والمنعة حيث لايصل اليه حاسـد ولا يستطيع ان ينال منه بغض كائد ، وكان بعد ذلك اليمن والخـير والخصب حتى تحقق له ما كان يصبوا اليه من مال وسلطان وعيشة رغدة .

ومما يسلك في هذا النوع من الرسائل ما ورد في رسالة أخرى من المعاني والعبارات الدالة على أنها موجهة إلى أمير لم يشر اليه بالاسم مكتفياً بمناداته بلفظ « سيدي » ويوميء في أوائل النص إلى أنه كان يتطلع إلى الوصول إلى رحاب هذا السيد والنزول في كنفه لينال الحظوة والأنس بالقرب منـه

(١) الذخيرة / ق ١م١ ص ١٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٥ - ١٥٦ .

والراحة والاطمئنان إلى عطائه وكرمه ، وقد تحقق له ذلك بعد أيام شديدة ومعاناة طويلة قربته من اليأس وكاد ان ينفض يديه من تحقيق رغبته مـــع الضجر الشديد من شماتة الحساد به وضربهم الأمثال في حالة وماوصل اليـه — وقتها — من الضعف والغربة والوحشة والحاجة حتى إذا لم يبق في القوس قرح ولا زيادة لمستزيد حلت العقد وأقبل السعد بعد أدبار : « لم أزل أزجـر للقاء سيدي السانح وأستمطر الغادي والرائح ، وأروم افتتاحه ولو بـــشر ك المنام ، وأحول اختلاسه ولو بأيدي الأوهام ، وأعاتب الأيام فلاتعتـــب ، وأقودها اليه فلا تصحب ، حتى إذا غلب اليأس وشمت الناس وضربت بي الأمثال ؛ فقيل أكثر الأمثال ضلال ؛ تنبه الدهر من رقدته ، وحل من عقدته وقبل مني ، وأظهر الرضى عني ، وقال دونك ماجمح فقد سمح واليك فقد دنا ما كان في المنى ... » (١) .

وتأتي العبارات الأخرى من الرسالة — أو الجزء المذكور منها — معبرة عن تعليل أبي المغيرة ما حصل له من رغد العيش والفرج بعد الشدة بما دبجـه قلمه من نثر وشعر في كلام يجمع بين خيري الدنيا والأخرة مما جعله يشعر بالنشوة والفخر والاطمئنان والراحة ؛ ولكن ذلك لم يدم طويلا إذ تغيرت الحال فجأة وصار كل شيء على خلاف ما كان عليه وتبدل السرور حزنـــاً وعادت السعادة شقاء وبؤساً وما ذلك إلا لان المعني بالخطاب قد عاد إلى سوء ظنه وفساد طويته وغلب عليه نزوعه إلى الشر فأخذ ما أعطى وسلب ما وهب : « ... وقد أذهلني الجذل عن سوء ظني به وأوهمني نزوعه عن ذميم مذهبـه الت الوانه .... ونادى ليتيم من قعد وينتبه من رقد انما فترت تلك الفتـــرة ليكون ما رأيت عليك حسرة وسمحت لك مرة — لتذوق من الأسف عليها كأساً مرة ، فرأيت وقد كان الذي أعهده من لؤمه ، وأعرفه من شؤمه ، ما وهب الأسلب ولا أعطى الاساءات كابهام القطا ، فيا له من قادر ما ألام قدرته وذابح ما أحد شفرته ... » (٢)

---

(١) الذخيرة / ابن بسام ق ١م١ ص ١٥٦ .
(٢) نفسه ص ١٥٧ .

ويمضي أبو المغيرة على هذا النهج في التعبير البليغ الدقيق عن الاضطراب وتقلب الأحوال متكئاً على لوم الدهر ثم يختم رسالته بأسفه من هذا الخصم الذي يتصوره واقفاً له بالمرصاد وهو ليس شخصاً يمكن الوقوف في وجهه بسهولة ويسر « لكنه أمير من وراء سحف ، يسعى بلا رجل ويصول بلا كف ... (١) »

ولا يخفى ماتثيره هذه العبارات في الذهن من دلالات اجتماعية وسياسية تتمثل في تحاشيه ذكر أي اسم أو أشارة الى شخص معين كان هو السبب في تغير حاله وانقلابها بعد ان استقرت وأقبلت عليه بالبشر والفرح ، وتؤكد في الوقت نفسه المنهج التقليدي الذي عرف عن الشعراء والكتاب في المشرق والأندلس ؛ المتمثل في تعليق مايصيب الانسان في نفسه أو ماله أو أهله أو وطنه على الدهر وتحميله تبعة كل تقلب أو تغير ...

ويعلق ابن بسام على ماورد في السطور السابقة بالقول بأن ابا المغيرة قد اخذ هذه المعاني أصلاً عن المتنبي ثم اخذها عنه ابن عباد (٢) ... مما يؤكد حرص أبي المغيرة على معارضة المشارقة والمتنبي منهم بخاصة في اخذ المعاني وصياغتها في شعره او نثره .

ومن النصوص النثرية التي تأتي في هذا السياق من حيث مضامينها الاجتماعية سطور وردت تحت عنوان «وله من اخرى» جعل أبو المغيرة مقدمتها قطعة نثرية في وصف الطبيعة ضمنها مشاهد من فصل الربيع — وهي تأتي منفردة في رسائله في موضوع الوصف — وهو لاينص على ذكر الربيع باسمه ولكنه يشير اليه بما ينطوي عليه من الخضرة والزهر والثمر يقول فيها : «..فالارض قد نشرت ملاءها ، وسحبت رداءها ولبست جلبابها وتقلدت سخابها وبرز الورد من كمامه ، واهتز الروض بتغريد حمامه ، والأشجار قد نشرت شعورها وهزت رؤوسها والدنيا قد أبدت بشرها وأماطت عبوسها ، وكأن

---

(١) الذخيرة ق١ م١ ص ١٥٧

(٢) ينظر الذخيرة ق ١م١ ص ١٥٧ – ١٥٨ .

بها قد اطلعت من كل ثمر ضروباً» (١) .واذا كانت هذه السطور وما بعدها تدل على أن قائلها يعبر عن حالة من النشوة والسرور والراحة والبهجة ؛ فان السطور التالية لها تلفت النظر الى أن أبا المغيرة لم يورد تلك السطور ويمضي بلوحة ربيعية بهيجة معبرة الا ليوازن بين حاله وشعوره العميق بالحزن والألم والغربة والحسرة على الرغم مما حوله من دواعي السرور والفرح ، فهو في حالة تختلف عما حوله تماماً وان كان في جسمه ومظهره يعيش تلك الحالة ويبدو أنه من أهلها فيقول : «..وان كنا لانشارك في تلك الا بالعيان لا باللسان ، وبالطرف لا بالكف ، وننالها بالأختلاس لا بالأضراس ، وللدهر قسم من أقسام اللذة ، وصنف من اصناف الشهرة :

شهدنا اذ رأيناهم فكانا ... على اللذات في الدنيا شهود(٢)

ثم يصرّح بحاله وما ينتابه من سقم وعناء وضعف وبلاء قائلاً :

«..وحالي حالُ للسقام بها اتصال ، وللصحة منها انفصال يعين على ذلك ضعف البنية وفساد الأهوية والتخليط في الأغذية..» (٣) ونفهم من الرسالة أنها موجهة في الأصل الى أحد اقرانه يشكو له مايعانيه ثم يطلب اليه ان يوافيه بخبره وحاله ليكون ذلك مسلاة له وعوناً على الصبر ازاء الصعاب ؛ ثم يختتم الرسالة بالأستفسار عن شخص يشير اليه بـ«فلان» ذاكراً صفاته كما يعرفها ومنها معرفة علم الطب والشريعة والشغف بجمع المال والرغبة في أنواع الأغذية وذلك في تعابير دقيقة جاءت وكأنها لوحة فنية اجتماعية تصور حالة فئة من الناس في المجتمع نالت مالم ، تنله غيرها من نعيم ورفاه وسعادة «.. وبعض صلاحها بل كله تعجيلك بمطالعتي بحالك لأسكن الى ماأؤثر من ذلك وشفع لي بخبر «فلان» واشرح لي من خبر فلان واين بلغ من تكسبه وحيث انتهى من تطببه ، وكيف ظروفه وخزائنه ولصوقاته ومعاجينه ، وهل ينفد طبه وينفق بختجه وحبه ، وصف لي مايقوله على الماء..» (٤).

(١) - (٢) الذخيرة ق ١م١ ص ١٥٤ .
(٣) - (٤) المصدر نفسه ق ١م١ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

رسائل المجون واللهو

وفيما تبقى من رسائل أبي المغيرة رسالتان يبدو فيهما طابع السخرية والهزل والمجون وان كانتا لاتخلوان من دلالات اخرى نرجو أن نوفق الى الأشارة اليها في مضانها .

أما النص الاول حسب ترتيب ابن بسام للنصوص النثرية المنسوبة لابي المغيرة فقد اورده تحت عنوان «وله فصل من رقعة» . يقول فيها : «وعسى أن يكون شراء ذلك الديوان شراء التجار الاكياس من المدبرين القائلين بارتضاع الكافي ، وهمك أن يكون أبو الحسين وسيطك وجماله شفيعك فهو ممن كان له في الحسن لواء مرفوع وحُلة تزري بالو شي الصنيع ففي تلك الآثار ماسال من عذاره وطمس ليل اللحية ما كان أشرق من نهاره ، لاجرم لقد بقيت خيلان كالآثار الدالة على الديار والحلي السقيط ، المخبر عن بين الخليط ، واذا تأملتها قد اشتمل الشعر عليها وزحف من كل جانب اليها ذكرت بقول ابي الطيب :

برسوم كأنهنّ نجوم في عراص كأنهنّ ليال (١)

فهذه القطعة من خلال توجيه الخطاب فيها تبدو قريبة من الرسائل الأخوانية غير أنها تسير بعد ذلك على وفق أسلوب الاستهزاء والسخرية ممزوجة بالمعاني الغزلية مما جعل طابعها متسماً باللهو والدعابة والترفيه عن النفس ومفاكهة الأخوان في مجالس أنس ولهو وطرب حتى ان ابن بسام يشير الى هذا بقوله : «وأبو المغيرة في دعابته هذه كما قرأته في فصل كتبه أبو عبدالرحمن بن طاهر الى الوزير ابن عبدالعزيز مع غلام وسيم (٢) .

أما النص الثاني فانه يتفق مع نص الرسالة الأولى في عدد من المضامين الدائرة في اللهو والمجون ؛ الا انه يختلف عنه في كونه نصاً ذا دلالة أدبية واضحة كانت مثار تأمل من قبل الباحثين وهي تتمثل في كتابة أبي المغيرة رسالة

(١) الذخيرة ق ١م١ ص ١٣٩ – ١٤٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٠ .

أشبه ماتكون بالمقامة التي عرف فنها لدى المشارقة ، ويبدو أن أبا المغيرة قد عارض بها نصاً مشرقياً لاديب معروف في المشرق هو بديع الزمان الهمذاني ، وكأن ابا المغيرة أراد من ذلك افهام من يقرأ آثاره أنه يمتلك موهبة أدبية وفنية وقدرة لغوية مكنته من معارضة بعض المشهورين من المشارقة ، وتجـــدر الأشارة الى أن الأندلسيين قد عرفوا فن المقامة وعارضوا المشارقة فيه بنصوص عديدة وخاصة في القرن الخامس والقرون التالية في الأندلس وعلى هذا فقد جاء أبو المغيرة معبراً عن هذا الاتجاه واضعاً اسسه حريصاً على الأجادة في ميدانه الأدبي والفني ، مستعيناً بأسلوب الدعابة والسخرية مع الفكاهة والطرفة المحببة التي تقرب المعنى الى القلوب وتزيده تأثيراً واثارة . يقول ابن بسام بين يدي تقديمه النص النثري او المقامة : «وعرضت على ابي المغيرة رسالة(١) بديع الزمان في الغلام الذي خطب اليه وده بعد ان عذر وبقل وجهه وازهر فعارضها برقعة يقول فيها :

«...ورد كتابك تنشد ضالة ودّنا وترفع خلق عهدنا ماأفاتته جريرتك الينا وذهبت به جنايتك علينا ، أيام غصنك ناضر وبدرك زاهر ، لانجد وسولاً اليك غير لحظة تخرق حجاب الدموع أو زفرة تقيم منآد الضلوع فان رمنا شكوى ينفث بها مصدورنا أو يستريح اليها مهجور نا لقينا دونها أمنع سدّ وأفدح ردّ ، وقلت أهذا الطامع في أن يطالع القمر الطالع ، والراغب في أن يصاحب النجم الثاقب..» (٢) .

ففي هذه المقدمة نحس بنبرة العتاب الذي لايخلو من شدة وعنف «تجاه من أعرض عن محبيه ابان شبابه وفتوته حين كان غصنه ناظراً أو زهره مفتحاً والأيام مقبلة عليه اذ كان ذا سلطان وقوة ثم فقد ذلك فجأة ، وقد أشار ان

(١) بديع الزمان صاحب المقامات المشهورة في المشرق والتي كانت من اسس مقامات الأندلس. والرسالة المذكورة هي احدى رسائله المعروفة ، ينظر في ذلك : رسائل بديع الزمان وزهر الآداب – الحصري ، ص ٧٣٢ حيث أورد نص الرسالة ضمن جملة رسائل .

(٢) الذخيرة ق ١م١ ص ١٤٠

هذا الحصري بقوله في تقديم رسالة بديع الزمان : «وكتب الى بديع الزمان بعض من عزّل عن ولاية حسنة يستمد وداده ويستميل فؤاده فأجابه بمـــا نسخته..» (١) فالرسالة اذن كما ارادها أبو المغيرة — مقتفية لاثر رسالة البديع — في رجل قد زال ملكه وسلطانه فأقبل على اصدقائه يتفقدهم ويسأل عنهم وقد كان قبلها معرضاً ناكراً مشغولاً بسلطانه عن الوفاء مع أقرانه .

وما ذلك الا لحاجة الحت عليه وظروف شديدة نزلت بساحته فألجأته الى رحابهم ووضعته في فنائهم وفي هذا يصور أبو المغيرة تلك المشاعر منطلقاً من معاني رسالة البديع فيقول: (... ونعود الى نار الوجد بك نصلاها وديار البعد عنك لانبرح مغناها حتى اذا أطفئت تلك النيران وانتصف منك الزمان بشعرات أغشت هلالك كسوفاً وقلبت ديباجك صوفاً وأعادت نهارك ليلاً.. أقبلت تنسلّ الينا لواذاً وتطلب فينا عياذاً وقد أنساك ذل العزل عز الولاية ، فالآن نلقاك بدمع قد جفّ ووجد قد كفّ وعزاء قد أبد وصبر قد غار فانجد ، وهوى قد أراح رواحله وأطاع عاذله ، وسلو قد قرب ركائبه وأسعد طالبه ، ونظر منك الى روض قد صوح وسار قد أصبح وأعجم قد أفصح(٢).

ثم يختم أبو المغيرة — فيما يبدو لنا من — عباراته السائرة في هذه المعاني العتابية التقريعية الشديدة بقطع أمل طالب الود ومنعه من الأسراف في التأميل والقرب ويدعوه الى الانشغال بما هو أهم وأجدى وأرفع وأنفع ، وذلك مع ضرب المثل : ليثبت المعنى والتذكير بأن مافات لايعود مهما حاول الانسان (.. فهلا ذكرت المثل الممتهن : الصيف ضيعت اللبن ونسيت من أحرقت قلبه صداً واقلقت خلبه رداً وملأت جوانحه ناراً وتركت نومه سراراً أن يوفيك قرضاً ويجازيك حتى ترضى ، حين نكّس علمك وعثرت قدمك ، وضاقت طرقك ، واظلم افقك وخوى نجمك وخاب قدحك ، وفلّ سيفك وحط رمحك فاطو ثوب وصلك فلا حاجة لنا إلى لباسه وازو طارق شخصك فلا

(١) زهر الآداب / الحصري حـ٢ ص ٧٣٢ .
(٢) - الذخيرة / ابن بسام / ق ١م١ ص ١٤١ .

رغبة لنا في ايناسه فما نشتهي اليوم زيارة رمس من زهد فينا امس .
حانت منيتـه من سوء عـارضه كمـا تسوّد بعد الميت الـدار (١).

— وبهذا يختم أبو المغيرة قطعته النثرية أو رسالته المعبرة عن مشاعره العميقة تجاه العقوق والأعراض في الرخاء والأقبال في الشدة .. وهو يقطع بـذلـك أي سبب للوصل أو مظهر للمودة .

ولقد كانت العلاقة بين نص البديع ونص أبي المغيرة مثار اهتمام بعـض الباحثين حين تتبع المعاني المشتركة بينهما وحاول اثبات المعارضة وتأكيـدها من قبل أبي المغيرة لنص رسالة البديع ، وأشار إلى مواطن عديدة حاول فيها أبو المغيرة اقتفاء أثر سلفه المشرقي والسير على نهجه فيها مضموناً وشكلا .

وملخص رسالة البديع ان رجلا كان ذا نفوذ وسلطان وكان يتفاخر على أقرانه ولا يلتفت إلى أحبته وخلانه حتى إذا دار الزمان دورته وتخلت عنه سلطته رجع إلى أولئك الأحبة يلتمس سابق ودهم ويحاول احياء ما اندثر من سالف عهدهم معه ، ولكنه لا يرى من البديع وأقرانه سوى الاعراض والصدود ، فقد كان يتيه على الناس كبراً وترفعاً ، فلما زال عنه السلطـان طلب التودد ولكن بعد فوات الأوان ، وكان الجواب عليه (رسالة من الطرافة والسخرية والازدراء بحيث لانملك الا الأعجاب برشاقة اسلوبها ومرارة سخريتها ...) (٢) ولكي يوضح الباحث بعض جوانب الصلة بين الرسالتين عقد موازنة بينهما بأن يعرض نصاً من رسالة أبي المغيرة ثم يقابله بنص مـن رسالة البديع ، ليستنتج بعد ذلك ما يربط بينهما من معنى وأسلوب بحيـث يلاحظ المتأمل حرص أبي المغيرة على اقتفاء أثر البديع حتى في العديد مـن التعابير والالفاظ التي تؤدي المعنى نفسه وبالقدر نفسه من السخرية والهزء مع مزج بارع بين هذه المعاني وبين طرف وفكاهات تناسب المقام وتثبـت المعنى في الذهن وتجعله أكثر قبولا وأستساغة « ان ابن حزم يقول على سبيل

(١) المصدر نفسه ص ١٤١ – ١٤٢ .
(٢) الادب الأندلسي / موضوعاته وفنونه / مصطفى الشكعة ص ٥٨٣ .

المثال : أيام ترشقنا سهام الحاضك رشقا ، وتقتلنا سيوف الغاظك عشقاً ، وتميس عضباً ، ، فتثير حزناً ، وتطلع شمساً فتغيب نفساً ، خدودنا أرض نعالك وصدورنا حد مجالك ، ونفوسنا مهاد جنبك وقلوبنا ميدان حزمك ، فالأن نلقاك بدمع قد جف ووجد قد كف وعزاء قد أبد وصبر قد غاروانجد .

وقبل ذلك قال بديع الزمان : « وتناسيت أيامك اذ تكلمنا نزرا ، وتلحظنا شذرا وتجالس من حضر ، ونسترق اليك النظر ونهتز لكلامك ونهش لسلامك أيام كنت تتمايل والأعضاء تتزايل وتتفانج ، والاجساد تتعالج وتتلفت ، والأكباد تتفتت وتخطر وترفل ، والوجد يعلوبنا ويسفل ، وتدبر وتقبل فتمنى وتخيل وتصد وتعرض فتضني وتمرض ... » (١) . ثم يأتي الباحث بفقرة أخرى لابن حزم يقابلها بنص لبديع مؤكدا النتيجة التي استخلصها في العلاقة بين النصين وهي ان ابا المغيرة « يسير في ركب بديع الزمان وينسج على منواله حتى في هندسة الرسالة نفسها من ايغال في السجع وعلوفي السخرية ، والحاح بالشماتة وتزيين للاسلوب بأبيات من الشعر تتمشى مع طبيعة المعنى والسياق ... » (٢) .

سمات في نثر ابي المغيرة

ان المتأمل في رسائل أبي المغيرة عبر موضوعاتها المذكورة فيما سبق يبدو له أن هذا النثر مكتوب بقلم كاتب معنيّ بأصول الكتابة ولوازمها ، معبر عن ثقافة واسعة وأطلاع وافر على أدب المشارقة نثرهم وشعرهم فضلاً عن أطلاعه على أدب الأندلسيين حتى عصر أبي المغيرة ، مما مكنه أن يكتب نثراً ذا سمات تشهد بالتفوق والمقدرة الأدبية ويمكن أن ينظر في تصنيف هذه السمات على جانبين رئيسين : جانب المعنى وجانب اللفظ ، وذلك تسهيلاً للنظر في تلك السمات وتحقيقاً لمنهج منسق يعنى بكل مجموعة من السمات تندرج تحت عنوان رئيس ، وربما أعان ذلك على دفع ماقد يكون من تداخل بين الصفات ... وبهذا يكون لنا أن نبدأ بالمجموعة الأولى

(١) – (٢) المرجع نفسه ص ٥٨٨ و ص ٥٨٩ – ٥٩٠ على التوالي .

المعاني والافكار

اذا ألقينا نظرة على موضوعات الرسائل – كما اشار اليها البحث – أمكننا القول بأن هذه الموضوعات متنوعة تتناول جملة المضامين المتصلة بأحوال المجتمع في جوانب حياته المتعددة ، ولكنها مع ذلك موضوعات أدبية معروفة في الأدب العربي ، وجاء في مقدمتها ؛ الرسائل الأخوانية التي استأثرت باهتمام أبي المغيرة وشغلت حيزاً كبيراً من تلك الرسائل ، وكان مما عبرت عنه : علاقة أبي المغيرة بأقرانه من الادباء وغيرهم في جانبيها الأيجابي والسلبي ، وعبرت في الوقت نفسه عن حالة أبي المغيرة النفسية في أزماته وأحواله المتقلبة بتقلب الأحوال وتغيرها ، ومما قامت عليه تلك العلاقات مخاطبة الأعلام المشهورين في عصرهم لافي ميدان الأدب فقط وانما في ميدان العلم العام وعلوم الشريعة والتاريخ والنفس والأخلاق ، وذلك على نحو ما اشرنا اليه في مراسلة أبي المغيرة لأبي عمر بن عبد البرّ وأبي محمد بن حزم وهما من أعلام الفقه والحديث والادب وغيره ، وجاءت رسالته لابن عبدالبر طافحة بمعاني المودة والأخاء واظهار مشاعر الود والوفاء والمحبة واثبات الحاجة الى اللجوء الى المخلصين الأوفياء في أوقات الشدة والمحن وتكاثر الاحزان والهموم وذلك كله يثبت موقف أبي المغيرة من صديقه العالم المحدث الاديب وتقديره لمكانته العلمية ، كما دلت مراسلاته مع ابن عمه ابي محمد إبن حزم على اظهار قدرته العلمية والأدبية ، على الرغم من كونها لم تصل الى درجة أبي محمد في نواحي عديدة ، أذْ كان أبو محمد علماً بارزاً في سماء العلوم الأندلسية بخاصة والعربية بعامة حتى كان ذلك من اسباب حسد أبي المغيرة له ومحاولة الحط من شأنه واضعاف مكانته العلمية . وفي رسائل المراجعات والمجاوبات لاحظنا طول نفس أبي المغيرة في الحوار ، والرد على الخصوم وان كانت ردوده لاتخلو من حدة وقسوة تجاه الخصم مع حاجتها الى مزيد من الموضوعية والعلمية حيث حجبت في ضباب السخرية والاستهزاء والانحدار الى الهجاء المقذع والمناقشة التي تفتقر الى الدليل المقنع والحجة الدامغة .

علما بأننا نجد أبا المغيرة أحياناً يجنح الى الهدوء واللطف في مناقشته مع آخرين ومنهم أبو علي أبن الربيب وذلك ليأتي الجواب منسجماً مع أسلوب الرسالة السابقة لابي علي ، وبهذا جاء أسلوبها منطوياً على قدر واضح من العواطف الودية والمشاعر الأخوية والاحترام المتبادل في حين جاءت رسالة أبي المغيرة في الرد على احمد ابن عباس — وهو الأديب الكاتب المعاصر لابي المغيرة — ساخرة هازئة ، معبرة عن معاني وأفكار مزرية أقرب ماتكون الى الهزل والفكاهة ، وهكذا يمكن القول بأن أبا المغيرة في رسائله الجوابية ومراجعاته النثرية ، كان يحرص على أن يخاطب المقابل بما يناسب مكانته في نفسه ويوازي علاقته وصلته به ويتفق في ذات الوقت مع معاني واساليب الرسالة التي يجيب عنها .

وفي الرسائل الاجتماعية تبدو لنا الأفكار والمعاني المناسبة لأحوال المجتمع وتعبر عن الجوانب الهامة في حياته ؟ ومن هذا ماعبرت عنه الرسائل من جانب العلاقة السلبية بين الأقران والأصحاب وبصورة خاصة الأدباء منهم ، وربما أفادت ضعف العلاقات بين افراد المجتمع بصورة عامة الى حد دفع أبا المغيرة الى ان يوصي من يثق به بان يكون حذراً متحفظاً من الناس وان يعتزلهم مااستطاع ، وهو يرى أن أعدى ، عدو للانسان نفسه التي بين جنبيه ثم من يحيط به ويتصل معه بعلاقة مودة او أخوة أو قرابة ... وأبو المغيرة في هذه المعاني لايكاد يتجاوز معاني الأقدمين في المشرق والأندلس وان كانت فترة حياته تمتاز بشدة الاضطراب والفتن والمحن . ولهذا وجدناه يدعو — الى جانب الحذر — الى الأفادة من التجارب والأحداث التي يمر بها الأنسان عبر مسيرته في الحياة وذلك — كما يرى — شأن العقلاء والحكماء .

ومما عالجه أبو المغيرة في رسائله الاجتماعية من المعاني المتصلة بالمجتمع ظاهرة طالما عانى منها المصلحون والعلماء والأدباء والكتاب والشعراء ؛ في فترات التقلب والاضطراب حيث يسود الأغمار ويضعف ويغمر الأخيار من الناس ويكون ذلك دلالة تغير الموازين وأختلالها في ظل الأحتكام الى الجهل والهوى والحماقة والطيش .

أما مجموعة رسائل المجون واللهو فان الملاحظ على أبي المغيرة فيها تجاوبه مع العديد من أدباء المشرق وتأثره بهم وبمعانيهم المجونية القائمة على اساليب السخرية والزراية الى حد الايغال في عبارات تنم عن البذاءة والفحش والأمعان في الاحتقار للخصم فضلاً عن التعبير عن المعاني الغزلية الهابطة ، وذلك على نحو ماورد في رسالته التي سبقت الاشارة اليها دون ايراد الألفاظ الفاضحة الفاحشة .

وبهذه الصفة نجد أبا المغيرة مختلفاً اختلافاً كبيراً عن ابن عمه العالم الأديب ابي محمد بن حزم على الرغم من ان الأخير كان يتصف بقدر غير قليل من الحدة والشدة والقسوة مع سرعة الانفعال والتأثر ولكنه بدا مستمسكاً بحدود الأدب وسمات الخلق المترفع العفيف الذي يؤدي الى الأعراض عن الجاهلين والنفور عن مجاراتهم حتى مع القدرة على كبتهم والرد عليهم بالحجة القاطعة والبرهان الساطع .

المعاني العلمية

جاءت المعاني العلمية ضمن الموضوعات التي تمت تسميتها والأشارة اليها ولما كانت قليلة متناثرة لم نر افرادها بالبحث ضمن موضوعات الرسائل ، ذلك أنها لم ترق الى ان تكون نثراً تعليمياً علمياً وانما هي — كما اشرنا — لمحات علمية صيغت بعبارات أدبية ، وهي تدل المتأمل فيها على معرفة أبي المغيرة بتاريخ العرب وأحوالهم والوان تصرفاتهم وتجاربهم في نواحي مختلفة فنجد أبا المغيرة مثلاً يمسك عن التفصيل وبسط القول في الموطن الذي يحتاج اليه وخاصة في رده على رسالة ابن الربيب فانه قد سلك في هذا الرد مسلك الاحتجاج المجرد والنظر السطحي العابر الذي لايعتمد الا القليل النادر من الأمثال والشواهد مع كثرة الأمثلة والشواهد من علماء الاندلس وادبائه وما تركوه من مؤلفات ومصنفات ودواوين وقد كان بين يديه منها القدر الوافر الذي يحتج به فهو لايرضى أن يتهم الأندلسيون بالتقصير ويطعن فيمن

يدّعي تقصيرهم وقصورهم ويرد الزعم بالنقض والأبطال دون تفصيل فيما كان عليه قومه من تقدم علمي وثقافي واسع فهو يقول مثلاً في سياق رده: «فأرى خبرك حتى أرادت الأيام كشف السرّ ورفع الستر ، فوقفت على الصحيفة التي ظاهرها ديباج مرقوم ، وباطنها لؤلؤٌ منظوم ، ووشي محوك وذهب مسبوك ، فرأيت صور الأدب باهرة المرأى والعيان شاهدة لك بأزلق لسان وأصدق بيان...» (١) ويمضي أبو المغيرة على هذا النهج مادحاً مرة قادحاً أخرى حتى بعد أن يأتي الى مايتوقع أن يكون تفصيلاً في الرد كما توحي العبارة بعد تلك المقدمة الطويلة « فأول ماقدمّت في كتابك مايقدمه ذو الفضل والنبل في الثناء على بلدنا وأهله..» (٢) . ويستمر على هذا دون أن يتناول ذكر مايدحض به اتهام التقصير ودفع العجز عن أهل الاندلس بقعودهم عن تسجيل مآثر علمائهم وأدبائهم وما تركوه من مؤلفات وآثار وكل مايأتي به مناقشة المعاني التي ذكرها أبو علي ابن الربيب وكيف أنه لم يوفق في معالجته لها ولم يكن منصفاً في عرضها .. ويلج أبو المغيرة في السير على نهجه هذا حتى نجد ابن بسام يضيق ذرعاً ويلجأ الى اختصار الرسالة مع تذرأ بقوله:

«قال ابن بسام : وخرج أبو المغيرة في رسالته هذه الى التطويل ، وبالغ في الاحتجاج بفصول هي خارجة عن هذه السبيل، وختمها بذكر جملةمن تواليف أهل الاندلس أضربت عن تسميتها لشهرتها...» (٣) وبهذا يشترك ابن بسام مع ابي المغيرة في التقصير بالأمساك عن ذكر المصنفات التي يشير الى أنها وردت في آخر رسالته محتجاً بشهرتها وذيوعها وقد فاته أن ذكرها لاينفع عصره فقط وانما ينفع العصور التالية في المشرق والأندلس على حد سواء وقد كان للباحثين مجال في الافادة منها مهما اختلف عصورهم مواطنهم وخاصة اذا كانت مما لم يرد في المصادر المتأخرة عن عصر أبي

(١) الذخيرة / ابن بسام ق ١م١ ص ١٣٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٩ .

المغيرة وعصر ابن بسام وهو الثلث الأول من القرن السادس . على أن المعاني والافكار العلمية التي أوردها أبو المغيرة متناثرة في رسائله المختلفة لاتخلو من دلالات أخرى ربما كان في مقدمتها اطلاعه الواسع على معاني أهل المشرق سواء على الصعيد العلمي أو الادبي أو كليهما معاً ، ومتابعته لدواوين الشعراء ورسائل الكتاب ومصنفات الأدباء وما حوته من الأخبار والآثار والمعاني الاجتماعية والسياسية والخلقية والتربوية والتعليمية حتى اننا نرى ابن بسام يقطع حديثه عن نثره وهو يسوق نصاً لأحدى رسائله ليرجع معنى من المعاني الى أصله المأخوذ منه ثم يورد جملة من مواطن الأخذ للمعنى نفسه بين الشعراء في استطراد طويل . ونذكر في هذا المنام رسالة ابي المغيرة التي نسج فيها على منوال بديع الزمان ، في احدى رسائله ، حتى جاءت اشبه بالمقامة وأقرب ماتكون الى نص بديع الزمان ، وفي هذه الرسالة جملة من المعاني والافكار ذات الدلالات العلمية المشرقية مثل قوله : «... والراغب في أن يطالع النجم الثاقب ؟ لشدّ مازاد وأبعد ماأراد ، حاول تألف الظبي الشارد وهصر الغصن المائد بدفعة صبها وزفرة شبها ، أما علم ان لحظي سهم ؛القلوب أغراضه ، وأتي ظبي النفوس رياضة...» .

ومثل قوله في موطن آخر من الرسالة نفسها: (...ونسيت من أحرقت قلبه صداً واقلعت لبه رداً وملأت جوانحه ناراً ، وتركت نومه غراراً ، أن يوفيك قرضاً ويجازيك حتى ترضى ، حين نكس علمك وعثرت قدمك وضاقت طرقك وأظلم أفقك وخوى نجمك وخاب قدحك وفلّ سيفك وحطّ رمحك ، فاطوِ ثوب وصلك...) . وهذه المعاني وأمثالها تبدو مألوفة معروفة في أدب المشرق ومعانيه وأفكاره وأنماط سلوك الناس وعلاقاتهم التي تجاوب الأدب معها وعبر عنها بوسائل وأساليب عديدة ، ولهذا وجدنا أبا المغيرة يحرص بشدة على محاكاة أعلام المشارقة ومنهم بديع الزمان في النثر وأبو الطيب المتنبي في الشعر وكانت هذه المحاكاة أبرز ماتلاحظ بين

رسالة أبي المغيرة ورسالة بديع الزمان ؛ حيث ترتبط كل منهما بالأخرى بخيط من المعاني الرئيسة حاول فيها الأديب الأندلسي ترسم خطى الاديب المشرقي وبدت العلاقة بين المجتمعين وثيقة قوية متلاقية في جملة من السمات والدلائل الاجتماعية المختلفة في مرحلة مهمة من مراحل كل منهما الى جانب ماامتاز به الأديب الأندلسي – أبو المغيرة – من الحرص على الزخرفة اللفظية والوان التعبير وتباين الأساليب بما يعبر عن ذوق الأندلسيين وما عرفوا به من حب للتأنق والزينة في مظاهر حياتهم مستمدين ذلك من طبيعة بيئتهم وشخصيتهم ذات السمات والملامح الخاصة ولا شك أن هذه المظاهر والخصائص التي نشير اليها هنا بصورة عابرة يمكن أن تعدُ تمهيداً أو توطئة بين يدي الحديث عن سمات نثر ابي المغيرة على صعيد الألفاظ والأساليب.

سمات الالفاظ والأساليب

واذا نظرنا في نثر أبي المغيرة من حيث الفاظه وأساليب التعبير فيه ؛نجد أن هذا النثر مصوغ بعناية واهتمام كبيرين مع مادلّ عليه من موهبة أدبية وثروة لغوية وعلمية واسعة وإهتمام بالرسالة النثرية من حيث بناؤها وشكلها وصور التعبير فيها ، وقد أرتأى البحث أن ينظر في هذه الأمور في رسائل أبي المغيرة وذلك في اطار بناء الرسالة وسماتها البيانية والبديعية.

بناء الرسالة في نثر ابي المغيرة

ليس من السهل على الباحث أن يلاحظ اهتمام أبي المغيرة بمقدمة الرسالة مهما اختلفت الموضوعات وسبب ذلك فيما يبدو أن أكثر الرسائل الواردة في الذخيرة تخلو من المقدمة التقليدية المعروفة في رسائل المشارقة وعدد من الأندلسيين ولعلّ من أسباب ذلك اغفال ابن بسام لتلك المقدمات اختصاراً- كما ذكر ذلك في أكثر من موضع- وتأكيده على أن مايورده فصول من الرسائل وليست النصوص الكاملة لها.. ولكن مع ذلك نجد ان عدداً من هذه النصوص يدل على عناية واهتمام بافتاح الرسالة وذلك على نحو ما

بنا في رسالة أبي المغيرة الجوابية التي كتبها رداً على رسالة ابن الربيب وهذا مايشير اليه الجزء المذكور في بدء الرسالة على النحو الذي وردت به في الذخيرة فهو يقول: «..أ بقاك الله من حميم صريح الودّ أهدى تحيته على البعد..» (١) وهذه العبارات ربما اشارت الى عبارات أخرى سابقة عليها افتتحت بها الرسالة وخاصة عبارات الحمد والثناء على الله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم ، حيث يفترض أن ابن بسام قد حذفها هرباً من التطويل واعتمادا على أنها من بدهيات الرسائل المماثلة ، ومما يؤكد هذا؛ رسالة أخرى يفهم من بداية نصها أن العبارات الأولى فيها تمثل اوائل الرسالة وافتتاحها؛ يقول أبو المغيرة فيما نقله ابن بسام : «أعزك الله – في الاحتماء حسم الداء، ولا عدوّ للانسان الا نفسه» (٢) . أو يقول : «وقفت – كلأك الله – وأنت عين التمام وعلم الأعلام على كتاب عنوانه باسمك أسمال»(٣).

أو يقول في مفتتح نص آخر : «مؤدي كتابي هذا قصدَ حفرة الحاجب الفاضل...» (٤) فهذه العبارات وأمثالها في أوائل الفصول المذكورة من الرسائل تلفت نظر الباحث الى أنها قريبة جداً من مفتتح الرسالة وبدئها وأن ماحذف من ذلك الأبتداء قليل جداً بالأضافة الى كونه معروفاً في عموم الرسائل الوديّة بصورة خاصة وفي الرسائل الإخـــــــــرى بـــــصورة عامـــــــــة .

ولعلّ أهم مايعتمده الباحث في تعليل ذلك أن المنقول فصول لاتمثل النصوص الأصلية لتلك الرسائل مما يجعل مسؤولية ترك تلك المقدمات لاتقع على عاتق أبي المغيرة بقدر وقوعها على عاتق ابن بسام الذي اختط في ذخيرته منهجاً يلتزم فيه الأختصار والأختيار من النصوص .

---

(١) الذخيرة / ابن بسام – ق ١م١ ص ١٣٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٣ .
(٣) نفسه ص ١٦٢ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٢ .

السجع والازدواج

ومما امتاز به نثر أبي المغيرة عنايته الواضحة واهتمامه البالغ بترصيع عباراته النثرية بسمتي السجع والازدواج اللتين تمثلان اطار التعبير في العديد من النصوص النثرية في المشرق والأندلس عبر الموضوعات والأغراض المختلفة لدى المشهورين من كتاب المشرق والأندلس مثل الجاحظ وبديع الزمان وابن عبد ربه وغيرهم من كتاب وناثري القرون الأربعة الأولى من الهجرة ، وبهذا يأتي أبو المغيرة منسجماً مع عصره متجاوباً مع الخطوط العامة لقواعد النثر العربي ؛ تلك القواعد التي تعنى بالزخرفة والتزيين والترصيع بأقدار مناسبة وان كان ذلك قد تطور في القرون التالية إلى تصنع لفظي لم يخل في كثير من الأحيان من ثقل ومجافاة للطبع والبداهة والفطرة ونأتي إلى نصوص أبي المغيرة لنجد ان هاتين السمتين تبدوان بوضوح في تعابيره العديدة ومن ذلك قوله في رسالته لابي علي ابن الربيب : « ... فرأيت صورة الأدب باهرة المرأى والعيان ، شاهدة لك بأذلق لسان وأصدق بيان ... » (١) وكذلك قوله في سطور وضعها ابن بسام تحت عنوان : فصل من رقعة له

« مؤدي كتابي هذا قصد حضرة الحاجب الفاضل ، ولم يجد بداً من سبب واصل ، إلى رجاء حاصل » (٢) أو قوله في صدر سطور جاءت تحت عنوان : وله من أخرى : « وان رأيت تأنيسي بكتاب أجتلي فيه وجوه البدور وجواهر النحور ، ودرر الثغور ، وأجتني به ثمر السرور ... » (٣) . وحين نعيد النظر في هذه العبارات وعبارات الرسائل بصورة عامة يبدو لنا حرص أبي المغيرة على استعمال ظاهرة الأزدواج أكثر من ظاهرة السجع مع أنهما متقاربتان بينهما وشيجة قوية وصلة واضحة ، فهو يحرص على تكرار الحرف الأخير مرتين أكثر من حرصه على تكراره مرات عديدة ليكون سجعاً ،

(١) الذخيرة ، ابن بسام ق ١م١ ص ١٣٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٢ .
(٣) نفسه ص ١٥٩ .

وهكذا بدت ظاهرة السجع إلى جانب الازدواج خافتة ضعيفة لطغيان ظاهرة الازدواج على عموم التعابير الواردة في الرسائل ، ففي النص الأخير من النصوص السابقة نجد ان ظاهرة السجع قد وردت في ثلاث جمل انتهت بالفاظ : البدور ، النحور ، السرور . في حين نجد ابا المغيرة ينتقل إلى سمة الازدواج بعدها مباشرة فيأتي بحرف موحد في كل جملتين ويمضي في ذلك حتى نهاية النص من الرسالة قائلا : « ... وأرفع في رياض العلوم ، ما بين منثور ومنظوم ، نفست من خناق مشتاق كئيب ، وأنست من وحشة منفرد غريب ، بحيث لا أخ كريم ، ولا ولي حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامي بأرض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود .. (١)

ومثل هذا ما ورد في رسالة أبي المغيرة التي وردت سطورها الأولى ضمن موضوع الرسائل الاجتماعية ومنها قوله : « ... والعاقل من حمله كل بلد ، ونفق عند كل أحد ، وأعقل منه من عرف الناس ولم يعرفوه ، فاستراح من أجنبي متكلف — أو قريب غير منصف ولم يفتقر إلا إلى ربه ، ولم يأنس الا بنور لبه ... » (٢) وهكذا نلاحظ حرص أبي المغيرة على ان يوحد كل فاصلتين في التعابير بحرف واحد هو الدال في الأولى والثانية ، والهاء في الثالثة والرابعة والفاء في الخامسة والسادسة ، ثم الهاء مرة أخرى في السابعة والثامنة وهكذا بالنسبة للمواطن الأخرى على أمتداد النصوص المختارة في الذخيرة من نثر أبي المغيرة .

على ان الاطالة الهينة — كما نرى — في هذا المجال تبدو في حرص أبي المغيرة على البعد عن الثقل والمجافاة للطبع مما قد يتسبب في السجع أحياناً حيث لجأ الكاتب إلى التنويع في الفواصل مع الأخذ بتوحيد الفاصلة في نهاية

(١) نفسه ص ١٥٩ .
(٢) الذخيرة / ابن بسام ق ١م١ ص ١٥٤ .

كل عبارتين وبهذا يكون قد جمع بين السمتين محققاً أمر الرابطة التي تربط بينهما مع التنويع الذي يعد من لوازم الزخرفة اللفظية بأسلوب رشيق رائـق معبر بعيد عن السماجة والاستثقال وتوظيف ذلك لخدمة المعنى المراد فـي القطعة النثرية ؛ ولعل الباحث بعد هذا كله يستطيع القول بأن المزج بين السمتين المذكورتين واستعمالهما بأقدار مناسبة مؤدية للمعنى ومحققة لقدر غير قليل من سمات الجمال في التعبير والدقة في التصوير .. نقول ان ذلك كله لا يبعد عن طبع الأندلسيين وميلهم إلى ايثار السهولة والوضوح في كل شيء مـع الأخذ بأسباب التعبير الجميل المؤثر .. مما يمكن اعتباره صدى لأحوال البيئة والشخصية الأندلسيتين .

وربما أفاد هذا كله بأن أبا المغيرة انطلق في قواعده الكتابية النثرية مـن قواعد وأصول المشرق مترسماً خطى الأقدمين المشهورين من أعلام المشرق في الكتابة ولكنه مع ذلك لم يبعد عن اطار بيئته ولم يغفل ميول وطبـاع شخصيته الأندلسية وهذا نهج طالما حرص عليه الأندلسيون في مراحل حياتهم العلمية والثقافية والأدبية المختلفة وخاصة في القرن الرابع والقرن الخامـس والقرون التالية وان كانت هذه الصفة تبدو أكثر وضوحاً وتألقاً في الشعـر دون النثر . وذلك ما عرفه الدارسون والباحثون في الشعر الأندلسي عبر شعرائه المشهورين المجيدين أمثال ابن دراج وابن شهيد وابن حزم وابن خفاجة وابن عبدون وابن وهبون وغيرهم كثير .

سمات بيانية

اذا كانت الموضوعات الرئيسة في علم البيان هي : الاستعارة والكناية والتشبيه ، فاننا نجد ابا المغيرة قد اكد عليها وعنى بها في نثره عناية كبيرة كادت تطغى على السمات المعتمدة على الفنون البلاغية الأخرى ، والمتأمل في رسائل ابي المغيرة لا يكاد يقرأ سطراً واحداً خالياً من صورة او اكثر من

صور البيان المذكورة .

وتأتي الاستعارة في مقدمة هذه الفنون من حيث كثرة استعمالها في هذا النثر حتى استوعبت الكثير من التعابير والجمل التي تتقارب معانيها وتختلف الفاظها وتعابيرها في وجوه متعددة واقدار متباينة ، ففي مفتتح قطعة من نثر ابي المغيرة وردت تحت عنوان (فصل من رقعة شفاعة ايضاً) نلاحظ فيها استعمال ابي المغيرة لعدد من الاستعارات الجميلة المعبرة المعتمدة على نقل الحسّ إلى المعنى او العكس او الحسي إلى الحسي او المعنوي إلى المعنوي ، حتى بدا المعنوي محسوساً وكأنه كائن حي يشعر ويحس وينظر ويتأثر وينفعل ويؤثر وله من صفات الأحياء الشيء الكثير : «اذا شرب روض الشكر من حوض البر ، اطلع من الزهر ، ما يحمل مسك الطرر وتنفس عن نسيم يشفي حرارة القلوب الهيم...» (١) . ففي هذه العبارات القليلة نلاحظ : نقل الروض إلى الاحساس والشعور بالحياة باسناد الشرب اليه على قاعدة الاستعارة المكنية ، ومثل : حوض البر ومسك الطرر والنسيم الذي يشفي حرارة القلوب الهيم . والقلوب الهيم التي اصبحت كالابل العطاش الهيم .

وبعد ان يشير الكاتب إلى الشخص المعنى بالشفاعة ويكنيه بأبي الربيع ، يأتي إلى ذكر المزيد من اوجه التعريف بصفاته وشمائله معتمداً صور الأستعارة على نحو ما سبق فيقول : (... فمن اوثقه براً طوقه شكراً ، ومن خلع عليه ثياب الفضل من طراز الاكرام ، نزع اليه بجياد الحمد من مربط الكلام ، ولم يزل يجزي خلف الطلب بيد الأدب ، ويسري في ظلام الأمور بسراج المنظوم والمنثور حتى اذا رأى تلك الأسباب رثاثـــــــاً ، وعاين مبرم وسائلها انكاثاً — طلق عرس الشعر ثلاثاً وصار لا يرى نجعة الأدب ، ولو اوطأته على ارض من الذهب..) (٢) . ويبدو بوضوح تأكيد الكاتب وتحريه الشديد لأيراد الصور الاستعارية بألوان مختلفة لتؤدي معاني متقاربة إلى حد كبير

(١) الذخيرة / ابن بسام / ق ١م١ ص ١٥٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٢ — ١٥٣ .

مثل قوله : او ثقه براً ، طوقه شكراً خلع عليه ثياب الفضل ، بجياد الحمد ، مربط الكلام ، سراج المنظوم والمنثور الاسباب رثاثاً — مبرم وسائلهـا انكاثاً . طلق عرس الشعر . نجعة الادب ... وهي صور تؤكد الصفات العالية للممدوح وتركز على الفضائل المعروفة المشهورة ولكنها لا تسميها باسمائها وانما تعبر عنها بهذه الاستعارات اللطيفة الملونة مما يكون اكثر تأثيراً وأعمق اثارة للمشاعر الايجابية تجاه من يمدحه الكاتب .

وفي موضوع وصف الطبيعة وفيه نص واحد تقريباً — نرى ابا المغيرة يسير على النهج نفسه في صياغة تعابيره واوصافه بأساليب استعارية ربما بدت اقوى من نظائرها في الموضوع السابق وغيره واقرب إلى الرشاقة والرقة ، والدلالة على ذوق ادبي اصيل وعدة لغوية وادبية واف------رة ؛ فهـــــو يقول : (فالأرض قد نشرت ملاءها ، وسحبت رداءها ، ولبست جلبابها ، وتقلدت سخابها ، وبرز الورد من كمامه ، واهتز الروض لتغريد حمامه ، والأشجار قد نشرت شعورها وهزت رؤوسها ، والدنيا قد أبدت بشرهـا وأماطت عبوسها وكأن بها قد اطلعت من كل ثمر ضروباً وأبدت من جناها منظراً عجيباً ...)(١) .

وهكذا تبدو هذه الصور لوحة فنية معبرة ، رسمتها ريشة فنان اصيـل يمتاز بذوق ادبي وطبع رقيق وعذوبة ورشاقة في التعبير والتصوير ، وقـد جاءت الاستعارة المكنية مؤكدة على العلاقة بين المحسوس والمحسوس اكثر من تأكيدها على العلاقة بين المعنوي والمحسوس على نحو ما رأينا في صور القطعة السابقة وهي رقعة الشفاعة ، وهذا كله يدلنا على قدرة الأديب في التعبير عن بيئة الأندلس بكل خصائصها وميزاتها وشخصية الأندلسي بأصولها ومقوماتها وطباعها وتأتي صور الاستعارة بشكل مكثف متوال في سياق الرسائل الاجتماعية التي عبرت عن جانب من طبيعة العلاقة بين ابي المغيرة وأترابه من الأمراء والأدباء والأهل والأصحاب ؛ وما كان يجده ويحس

(١) الذخيرة / ابن بسام / ق ١م١ ص ١٥٤ .

به من الاطمئنان والراحة والاستقرار والتفاؤل في ظلهم وذلك عبر مخاطبتهم وتبادل التعبير عن المشاعر الودية الأخوية والروابط الروحية والأدبية ؛ يقول ضمن رسالة طويلة فيها عديد من المعاني الدالة : «.. وطرقت روضة العلم عميمة الأزاهر ، فصيحة الطائر ، ريا الجداول ، باردة الضحى والأصائل ، وطفت بكعبة الفضل مصونة الحبر ، ملثومة الحجر ، عزيزة المقام معمورة المشعر الحرام ، فما شئت من محاضرة تجمع بين الدنيا والاخرة ، بين يدي نثر يري الاعجاز ، ونظم ما اشبه الصدور بالأعجاز وحديث تقف العقول بازائه ، وتروي بصافي مائه ، فحيث شمخ بالظفر انفي ، واهتز لنيل الأمن عطفي ، والدهر يضحك سراً ويتأبط شراً ...» (١) .

ولا يخفى على المتأمل في هذه العبارات ان اصل فكرتها وموجز معانيها مديح رجل بليغ اللسان قوي البيان جاء كلامه روضة غناء حوت الوان الزهر والعطر وبدت بأثواب زاهية ومياه غزيرة وافية فكانت اشبه بكعبة تقصد حيث الأمن والانس والراحة ، ويبدو كذلك للمتأمل في هذه الصور حرص ابي المغيرة على اعتماد عنصر الكفاية إلى جانب الاستعارة لما بينهما من وشائج مشتركة ؛ ومنها ذكر الطواف بالكعبة وتقبيل الحجر حين تذكره الكاتب وهو يطوف بذلك الروض ، وكان الكاتب بارعاً في المواءمة بين صور الكفاية والاستعارة والانتقال بينهما .

ولايتوقف امر المزج بين صور الاستعارة والكناية بتألف وتفاعل يخدم المعنى ويزيده رقة وجمالا بل يتعداه إلى الأخذ بفن التشبيه — ولو بقدر قليل ليزين به صوره ويدل على قدرته في توظيف هذه الفنون المهمة الرئيسة في علم البيان مثل قوله : ونظم ما أشبه الصدور بالاعجاز ، أما الطواف بكعبة الفضل . يصونه الحبر ملثومة الحجر ، عزيز المقام ، معمورة المشعر الحرام .. فهي كفايات متوالية جاءت معبرة عن تصور الشاعر وسعة خياله وقدرته على تأليف الصور من أجزاء مناسبة منسجمة يكمل كل منها الأخر مع ما في ذلك

(١) الصدر نفسه ص ١٥٦ – ١٥٧ .

من دلالات مشهورة معروفة لاتخفى على أحد ويمضي أبو المغيرة على النهج نفسه في استعمال الكنايات المتوالية التي تؤلف صوراً معبرة يطرز بها كلامه ويزين جمله ، فيقول ضمن رسالة من رسائله إلى ابن عمه الفقيه الأديب أبي محمد بن حزم وذلك في سياق المناقضات النثرية بينهما : —

« ... ونسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك ، التي صرت رئيس مدارسهم وكبير احراسهم ، تحدثهم عما كان فيهم من العبر ، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفا والكدر فتارة عن السامري والعجل ، وتارة عن القمل والنمل وطوراً تبكيهم بحديث التيه ، وطوراً تضحكهم بقوم جالوت وذويه ..»(١).

وتكاد هذه العبارات تكون كلها كنايات عبر فيها أبو المغيرة عن غمزه ابن عمه وما كان يمارسه من علم القرآن والتفسير وذكر العبر والعظات بالأمم السالفة مع ذكر اسماء ودلالات وردت في القرآن الكريم في شأن بني اسرائيل وعبادتهم العجل أو امتهانهم بآيات عديدة وما أوقع الله بهم من التيه جزاء أعراضهم وأمعانهم في المعاندة والتكذيب ، وأخيراً الاشارة إلى ما ذكره القرآن الكريم عن جالوت وقومه وقصة المواجهة ونتائجها ..

وتتوالى صور الكناية معبرة عن المعاني المتقاربة المترادفة كذلك في رسائل أخرى من موضوعات أخرى منها ما كتبه أبو المغيرة في التعبير عن الشكوى من أقرانه وأصحابه حين ساء ظنه بهم ، ربما بسبب ما لاقاه من بعضهم حتى وصل به الحال ان يتصور نفسه ، كأنه يعيش في غابة للوحوش ليس فيها الا ذئب مفترس أو لص متربص أو أسد هصور ، ولكنه مع ذلك يبدي — كما يزعم — ثباتاً وعزماً وقوة وبأساً دون ان يضعف أو يلين : « ... فكم ليث كامن في غابة سمعت صريف أنيابه . وقفر أنست في يبابه إلى عواء ذئابه ، لا أمر الا باللص المستلب ولا القى غير الحارب المنتهب ، وشعاري عند النائبة القاها فاتخطاها والنازلة أراها فأتعداها .... » (٢).

---

(١) الذخيرة / ق ١م١ ـ ص ١٦١ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٥ .

وتبدو صور الكنايات واضحة في هذه العبارات وفيها قوله سمعت صريف انيابه ، وقمر انست في يبابه ، إلى عواء ذئابه .. اللص المستلب ، المحارب المنتهب ، وكلها كنايات معبرة عن الجو الذي يحيط بالكاتب وطباع الناس الذين يتعامل معهم ..

أما الرسالة المطولة التي عارض فيها رسالة بديع الزمان فانها لم تكد أقل حظاً من احتواء صور الاستعارة والكناية إلى جانب قدر قليل من التشبيه جرياً على عادته فيما سبق .

يقول في قطعة من تلك الرسالة : (... ونسيت من احرقت قلبه صداً ، واقلقت قلبه رداً ، وملأت جوانحه ناراً ، وتركت نومه غراراً ، ان يوفيك قرضاً ، ويجازيك حتى ترضى حين نكس علمك ، وعثرت قدمك ، وضاقت طرقك ، واظلم افقك ...» (١).

ولعل الصور في هذه العبارات واضحة لا تحتاج إلى تحديد او ذكر بعدما سبق من اشارات وعبارات اغنت عن ذلك واوضحت منهج ابي المغيرة في استعماله صور البيان .

ونجد هذا ايضاً في رسالة اخرى لأبي المغيرة يغمز فيها شخصاً لا يذكر اسمه الصريح وانما يشير اليه بـ (فلان) ويورد من اوصافه التي تتعلق بما يتعاطاه من حرفة او يعرف به من تصرف ما يجعله مثلا في الزراية والسخرية المؤثرة وقد سبقت الأشارة إلى هذه الرسالة في اكثر من موطن من البحث ولا نرى ضرورة الأشارة إلى عدد من عباراتها بعدما اوردناه من نماذج وصور في الموضوع نفسه (٢) .

اما صور التشبيه فانها — كما سبق ان ذكرنا — قد جاءت اقل قدراً في الاستعمال من صور الكناية والاستعارة ولكنها ، على كل حال يمكن ان تدل على عناية الكاتب بصور البيان عامة مع عناية اكبر بالصور التي تكون ابلغ

(١) الذخيرة ق ١م١ ص ١٤١ — ١٤٢ .
(٢) ينظر نص الرسالة في الذخيرة ق ١م١ ص ١٥٤ — ١٥٥ .

بياناً واعمق تأثيراً في النفس من غيرها ، بل ان ابا المغيرة حتى في الصور القليلة من التشبيه نراه يؤثر التعابير المؤثرة الجميلة التي تعتمد اسقاط اداة التشبيه ووجه الشبه ؛ او يستعمل المشبه به بدل المشبه او حذف المشبه به واسناد صفة من صفاته إلى المشبه وبهذا يتحول التعبير إلى استعارة تصريحية او مكنية وهما الصورتان الرئيستان اللتان اكدت عليهما اكثر الصور عبر الرسائل المختلفة ومن هذه الصور التشبيهية التي جاءت في حنايا التعابير الاستعارية والكنائية قول ابي المغيرة : «حتى اذا لقي من كريم صوناً وعلى من يحاوله عوناً ، ذكر فشكر بثناء كالزهر تحت انداء السحر ..» (١) . فالثناء — هو شيء معنوي صار كالزهر الذي هو شيء محسوس معروف ولا يخفى ما في هذه العبارات من التشبيه الذي يجعل الثناء كالزهر في تلونه وجماله وبهائه وقوة تأثيره قد جاء بالكاف اداة للتشبيه ثم عدل عن ذكر الاداة في العبارات الأخرى فجاءت تشبيهاته بليغة مؤثرة جميلة ...

واذا تذكرنا علم البديع وفنونه وحاولنا متابعة ما قد يكون من صوره في كتابة ابي المغيرة وجدنا منها الشيء الكثير من فنون هذا العلم وفي مقدمتها الطباق والجناس بأنواعهما وهما من سمات الزخرفة اللفظية والملامح الجمالية المعروفة في ادب العرب شعراً ونثراً بأقدار متفاوتة واشكال متباينة .

ففي نطاق استعمال الجناس — وهو فن بديعي معروف في اساليب الأدب العربي — نجد ابا المغيرة لا يغفل تطريز عبارته بنماذج منه ولكنها غالباً ما تأتي في نوع الجناس الناقص وذلك في قوله مثلا ضمن رسالته الجوابية على رسالة ابن الربيب : «.. فما زلت اتنسم ذكرك ، فأترسم قدرك ، واسمع خبرك فأرى خبرك . حتى ارادت الأيام كشف السر ورفع الستر ..» (٢) . فالفاظ : اتنسم ، أترسم وسر وستر وخبرك و خبرك الفاظ متجانسة في كل اثنين منهما ولكن جناسها ناقص ، غير ان التعبير بها قد بدا اكثر جمالا

(١) المصدر نفسه ص ١٥٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٦ .

واقوى تأثيراً وهو ينظم إلى الصور الأستعارية الكنائية الممتدة على طول الرسالة المذكورة ..

ومن هذا الجناس ما يتردد بنسبة اكبر في عدد من رسائله الأخوانية ومنها قوله من عبارات رقعة الشفاعة «... وبحسب القائل يكون المقال وعلى قدر الجائل يتسع المجال وابو الربيع من علم لسانه ان قال، وبيانه قصراً وطال.» (١).

فألفاظ : قائل ومقال ، وجائل ومجال ، وقال وطال ترتبط كل اثنتين منها بعلاقة جناسية ناقصة تتفق فيها اللفظتان في امرين من الأمور الأربعة المشترطة في الجناس التام ، وذلك بما عرف عن الجناس التام في عرف البلاغيين.

وفي رسالة اخرى نقرأ قول ابي المغيرة : «...تنبه الدهر من رقدته ، وحل من عقدته ، وقبل مني ، واظهر الرضى عني وقال دونك ما جمـــــح فقد سمح واليك فقد دنا ، ما كان في المنى ، فطرت بجناح الارتياح ، وركبت إلى الغمام كواهل الرياح وقلت فرصة تغتنم ، وركن يستلم...» (٢) .

وفي هذه العبارات الوان من الجناس الناقص وهي تتوالى هنا بخلاف مجيئها في الأمثلة السابقة متفرقة قليلة ، فهي لا تكاد تخلو من تعبير من هذه التعابير المتوالية . وهكذا نستطيع القول بأن هذا النوع من الجناس قد وظف لخدمة المعنى وزيادة ملامح الجمال وسمات الرقة والرشاقة فيه مع الأيقاع المؤثر والنبرات الرقيقة . ونستطيع ان نلمح في تعابير ابي المغيرة صورا طباقية ايضاً إلى جانب صور اعجاز واذا كان الطباق الجمع بين المعنى وضده في الكلام فان تعابير كاتبنا تكاد تزدحم بهذه الصور حتى ليمكن القول بأن الطباق يشكل احد اركان التعبير عند ابي المغيرة ولا تخلو رسالة او سطر من رسالة من تقابل في المعنى وذلك في قوله مثلا :

«... وحالي حال للسقام بها اتصال ، وللصحة عنها انفصال ...» (٣)

ففي هذه العبارات القليلة تقرأ الفاظ السقام والصحة ، والاتصال والانفصال

(١) الذخيرة / ابن بسام ق ١م١ ص ١٥٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٤ .

وقد تضادت كل اثنتين في المعنى كما هو واضح ، وهكذا لو اردنا المضي في التأشير على مواطن هذا النوع من الطباق .

غير ان ما يسمى طباق المقابلة يبدو اكثر استعمالا في عبارات ابي المغيرة حيث يكون الأول ضمنه ومتحققاً فيه ذلك ان كثيراً من تعابيره فيها تقابل واضح في المعنى بين جملتين لا بين لفظتين فقط ويظهر هذا في صدور القطع النثرية كما يظهر في حناياها واجزائها وفصولها المختلفة ، فمن ذلك قوله مثلا في سياق رسالته الجوابية لابن الربيب : «... حتى عارض الجبان الأسد ، وناطح الجوزاء الجلد ، وناطق الأعجم الفصيح ، وبارى الجاهل العالم ، وجارى القاعد القائم (١) ..» .

ففي هذه الكلمات القليلة حشد كبير من المتضادات المعنوية مثل معارضة الجبان للأسد ومناطحة الجلد للجوزاء ، والأعجم والفصيح ومن قبل ذلك الغارب والسنام .

على اننا اذا تبينا ما ورد في النصوص من هذا النوع وجدنا الكاتب قد صب في صياغته فنه وخبرته وذوقه وطبيعته ومعرفته وعلمه حتى وصل إلى ان يجعل مجموعة من التعابير المتوالية والمتضادة في داخلها مقابلة لتعابير اخرى وتكون خلاصة المعنى الاجمالي للمجموعتين من العبارات طباق مقابلة تشمل النوعين: على صعيد الجملتين المتقابلتين وعلى صعيد مجموعتي التعابير التي تقف كل منهما بازاء الاخرى في المعنى وهذا ايضاً كثير في نثر ابي المغيرة ولا يتوقف على نوع واحد معين من الرسائل او موضوعاتها ويكفي ان نورد مثلاً واحداً على ما ذكرنا ليكون دليلاً على ما ورد في معناه عبر الرسائل المختلفة ، ومن ذلك قوله في احداها — وهي من الرسائل التي وردت الأشارة اليها في سياق الحديث عن الرسائل الاجتماعية : «.. لم ازجر للقاء سيدي السانح ، واستمطر الغادي والرائح ، وأروم اقتناصه ولو بشرك المنام ، واحاول اختلاسه ولو بأيدي الأوهام ، واعاتب الأيام فلا تعتب ، واقودها اليه فلا تصحب ، حتى

(١) المصدر نفسه ص ١٣٧ .

اذا غلب اليأس ، وشمت الناس وضربت بي الأمثال ، فقيل اكثر الآمال ضلال ؛ تنبه الدهر من رقدته ، وحلّ من عقدته ، وقبل مني ، وأظهر الرضى عني . وقال دونك ما جمح فقد سمح . واليك فقد دنا ما كان في المعنى فطرت بجناح الارتياح وركبت الى الغمام كواهل الارتياح ..» (١) .

واذا امكننا ان نتوقف في وسط هذا النص من اصل رسالة بدا لنا انها طويلة استطعنا ان نعين موطن الوقوف عند قوله : فقيل اكثر الأمال ضلال فعندها تقف المجموعة الأولى المتضمنة لقدر وافر من عبارات التقابل الطباقي بين كل لفظتين او جملتين وننظر في المجموعة الثانية التي تبدأ بقوله : تنبه الدهر من رقدته ... حيث تمضي عباراتها متقابلة فيما بين اجزائها منفردة ومجتمعة . ثم نقرأ المجموعتين فنجد ان ابا المغيرة قد جعل المعنى العام المستفاد من جميع العبارات في المجموعة الأولى يقابله ويضاده المعنى العام المستفاد من جميع العبارات في المجموعة الثانية ، ونعتقد ان التأمل في العبارات على نحو ما اشرنا اليه يظهر بوضوح لايحتاج إلى اعادة القول في العلاقة بين كل مفردتين في عبارة او بين المجموعتين وهكذا يبدو لنا ابو المغيرة — عبر رسائله جميعاً — كاتباً معنياً بزخرفة لوحاته وتلوينها وتزيين فواصلها بالوان من التعبير البياني والبديعي بما يدل على احاطة وسعة بعلوم البلاغة ووفور ألة التعبير البلاغي الناجح المقبول والبعيد عن الأيغال والالتواء او الهبوط والسماجة والضعف ...واذا كان ما استعمله ابو المغيرة من ذلك من تقاليد الكتاب والأدباء فان ذوقه وطبعه وشخصيته المتأثرة ببيئته كل ذلك جعله يمارس هذه الفنون ، ويعرضها بشكل يبدو اقرب إلى الجدة والطرافة منه إلى التقليد والمحاكاة .

(١) الذخيرة / ابن بسام ق ١م١ ص ١٥٦ وما بعدها بشأن النص المذكور من اصل الرسالة .

الخاتمة

لعلّ مما يكمل الصورة عن نثر ابي المغيرة عبر الجولة التي مرت في صفحات هذا البحث ان نتوقف عند التأشير على اهم النقاط التي ابرزهـا البحث والنتائج التي تمخض عنها في نثر اديب اندلسي عاش في فترة مهمة خطيرة من فترات الأندلس .

وفي مقدمة ما نشير اليه ان ابا المغيرة كاتب معروف مشهور على الصعيد الرسمي والشعبي والاجتماعي وان موضوعات فنه النثري قد استوعبت جلّ الموضوعات التي تتصل بالمجتمع بصورة مباشرة اوغير مباشرة ومنها الموضوعات الاخوانية والاجتماعية والمراجعات والمجاوبات واللهو والمجون وشيء من وصف الطبيعة وفي مجال السمات الفنية التي امتاز بها نثر ابي المغيرة اظهر البحث عناية الكاتب عناية كبيرة بفنون البيان والبديع إلى جانب الفنون الأخرى من البلاغة وقد جاء اسلوبه في هذا مرصعاً مزخرفاً بهذه الألوان البديعة دون ان يشطح قلمه — فيما نرى — إلى الغموض والأبهام او الايغال في وحشي الألفاظ وغريبها او عميق الأفكار والمعاني ، وكانت الاستعارة ثم الكناية في مقدمة موضوعات علم البيان كما جاء الطباق والجناس في مقدمة فنون علم البديع.

ومن النتائج التي نرى ان البحث قد توصل اليها مكانة أبي المغيرة في أدباء عصره من الأمراء وغيرهم وما كان يربطه بهم من علاقة ترتفع إلى مستوى الايجابية في التعبير بعبارات الحب والمودة والتقدير والاحترام ، أو تهبط إلى مستوى السلبية في التعبير بألفاظ الازدراء وعبارات الاحتقار والامتهان و كل ذلك عبرت عنه النصوص المجتزأة من رسائل قصيرة ومطولة .

ومن ذلك أيضاً التزام أبي المغيرة بمنهج الأندلسيين في القرون الأولى بالسير على نهج المشارقة والانطلاق من آثارهم ومصنفاتهم وتآليفهم بوصفها القاعدة الأساس والركن المهم في ثقافة الأندلسيين وأدابهم و كذلك السير على العديد

من أساليبهم في التعبير والتصوير سواء اكان ذلك في النثر أو الشعر ؛ ومع ذلك كله فقد كان لابي المغيرة — كما كان لغيره من الأدباء المعاصرين — سمات خاصة وملامح مميزة عبرت عن شخصية الأندلسي بجميع ملامحها وقسماتها وطباعها وأمزجتها كما صورت البيئة الأندلسية وما انطوت عليه من الزينة والزخرف والتلون بألوان الزهر والثمر والشجر والبناء والعمران وملاءمة الجو وكثرة المياه ووفور الأقوات والأزواد وغير ذلك مما بدت أصداؤه واضحة مترددة في جنبات أدب الأندلس وصفحاته بعامة ولدى أبي المغيرة ومعاصريه بخاصة . وأخيرا فان هذه الدراسة الموجزة — وهي تركز على النثر المتوفر لابي المغيرة — لتؤكد أهمية دراسة شعره في حنايا النصوص المتوفرة بين ايدينا لتكون الصورة أدعى إلى الوضوح وأقرب إلى الفكرة المتوازنة وذلك ما سيكون في بحث تالٍ باذن الله وتوفيقه .

* * *

المصادر والمراجع

١ — الأدب الأندلسي /موضوعاته وفنونه /د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت /الطبعة الثالثة ١٩٧٥م .

٢ — بغية الملتمس /الضبي /طبع مطبعة روخس سنة ١٨٨٤م .
مكتبة المثنى ببغداد . ومكتبة الخانجي بمصر .

٣ — البيان المغرب في اخبار الاندلس ، ابن عذاري المراكشي .
تحقيق : ج /كولان /أ. ليفي بروفنسال .
دار الثقافة ، بيروت .

٤ — جذوة المقتبس /ابو عبدالله الحميدي . طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة /١٩٦٦م ،

٥ — الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة /ابن بسام . تحقيق د. احسان عباس دار الثقافة /بيروت ١٣٩٩ /١٩٧٩م .

٦ — زهر الاداب /الحصري القيرواني ، تحقيق : علي محمد البجاوي دار احياء الكتب العربية /عيسى البابي الحلبي وشركاه ط ٢ .

٧ — الصلة /ابن بشكوال . وابو القاسم خلف بن عبدالملك ٤٩٤ — ٥٧٨ / الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م .

٨ — مطمح الأنفس ومسرح التأنس .. الفتح بن خاقان . تحقيق /محمد علي شوابكة ، دار عمار /مؤسسة الرسالة /الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ /١٩٨٣م .

٩ — المغرب في حلى المغرب /ابن سعيد واخرون /ت د. شوقي ضيف دار المعارف بمصر ١٩٦٤ طبعة ثانية منقحة .

١٠ — نفح الطيب : احمد بن محمد المقري التلمساني /تحقيق يوسف الشيخ محمد الرفاعي ، دار الفكر /بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م .